دار مجلة مرقس

المسيح المخلِّص
فى تعليم القديس أثناسيوس الرسولى

دار مجلة مرقس

المسيح المخلِّص

في تعليم وكتابات القديس أثناسيوس الرسولي



كتاب: المسيح المخلّص
في تعليم وكتابات القديس أثناسيوس الرسولي
إعداد: **رهبان دير القديس أنبا مقار**
الطبعة الأولى: ٢٠٠٤م.
الناشر: دار مجلة مرقس
مطبعة دير القديس أنبا مقار ـ وادي النطرون
ص. ب ٢٧٨٠ ـ القاهرة
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٣/١٠٦٤٧
الترقيم الدولي: 977-5545-38-2

المحتويات

مُقَدِّمَة(١)

كان القديس أثناسيوس ملتهباً بمحبة المسيح. وبينما هو يكتب إلى صديقه هذه الكلمات: "... إنني على يقين من أنك تحسب معرفة المسيح والإيمان به أسمى من أي شيء آخر على الإطلاق"(٢)، يمكن بالمثل أن يُلقَّب بنفس اللقب الذي دعا به صديقه وهو "φιλόχριστος" أي "محب المسيح"(٣). فقد كانت محبة القديس أثناسيوس للمسيح هي مفتاح حياته كلها وأيضاً كتاباته.

إن المسيح "الكلمة المتجسِّد" يشغل محور المنهج التعليمي لمعلِّم الكنيسة الشهير القديس أثناسيوس، كما لاحظ ذلك كل الذين كتبوا عنه. فمن الواضح أنه لم يكتب بالتفصيل عن مضمون طبيعة شخص المسيح Christology، أو عن علم اللاهوت Theology بوجه عام، غير أنه بإمكاننا من خلال كتاباته أن نكتشف منهجاً كاملاً نوعاً ما عن الفكر الديني في أيامه. في هذا المنهج نجد أن المسيح، بشكلٍ أو بآخر، يحتل دائماً موضع المركز.

والقديس أثناسيوس يُعالج في كتاباته بكل وضوح أهداف تجسُّد

---

(١) مقالات سبق نشرها في مجلة مرقس (أعداد: نوفمبر سنة ٢٠٠١، ويناير وفبراير ومارس وأبريل ومايو ويونية سنة ٢٠٠٢)، وهي مترجمة عن بحث:

Dominic Unger, O.F.M. Cap, *Franciscan Studies,* 1946, Vol. 6; "A Special Aspect of Athanasian Soteriology".

(٢) *Contra Gentes,* n. 1.

(٣) Ibid., n. 47; *De Inc. Verbi,* n. 1&56.

كلمة الله الأزلي. حقًّا، إن الثقل الرئيسي في كل كتاباته كان يتركّز في إثبات أن المسيح أي "الكلمة" هو إله؛ لكنه في سياق إثباته هذا نجده أيضاً يوضِّح **لماذا أخذ الكلمة لنفسه طبيعتنا البشرية**، وهو إلهٌ وأزلي. وهو يذكر أهدافاً عديدة متنوعة للتجسُّد، ولكن دون أن يستطرد بتدقيق في شرح العلاقة القائمة بينها.

في مؤلَّفه "**ضد الوثنيين**" يدحض القديس أثناسيوس عبادة الأوثان اليونانية، فهو يشرح الأصل الخاطئ للوثنية ونموها وانتشارها، ويضع في المقابل معرفة الإله الحقيقي التي أُعطيت بواسطة الكلمة الأزلي منذ بداية الخليقة، ومعرفة الله التي يمكن الحصول عليها بتأمُّل الخليقة حتى وبعد أن أخطأ الإنسان. وفي مؤلَّفه الثاني "**تجسُّد الكلمة**" الذي هو في الحقيقة استمرار وتكميل للمؤلَّف الأول، نجده يتحدث عن التجديد الذي حدث من خلال الكلمة المتجسِّد لعمل الله الأول الذي أفسدته الخطية. في هذا المؤلَّف يتحدث بوضوح عن سببين رئيسيين للتجسُّد. ومن المجمل المختصر لهذَيْن الكتابَيْن، يمكننا أن نرى القديس أثناسيوس يدرس ويصف تدبير الله على الصعيد الزمني. فعند الخلقة أعطى الله معرفة عن شخصه من خلال الكلمة الأزلي؛ ثم أخطأ الإنسان وفَقَدَ تلك المعرفة، ولكن الله دبَّر أن يظل الإنسان قادراً أن يعرفه من خلال الخليقة؛ ثم في ملء الزمان تجسَّد الكلمة لكي يعيد للإنسان القدرة على معرفة الله من خلال الكلمة الأزلي ذاته مرة أخرى.

✠ ✠ ✠

- ١ -

المسيح مخلِّصنا

سوف ندرس بالتفصيل أهداف التجسُّد المختلفة التي يُقدِّمها لنا القديس أثناسيوس. والهدف الأول الذي يناقشه هو **الحاجة إلى فداء الإنسان الخاطئ**. وهو يُقدِّم لنا الموضوع بالصورة التالية.

يقول القديس أثناسيوس:

[ولشرح هذه المواضيع (أي التجسُّد وألوهية الكلمة)، فمن النافع أن نتذكَّر ما قيل سابقاً (في الرسالة ضد الوثنيين) حتى يمكنك أن تعرف لماذا ظهر كلمة الآب، الكلمة الذي هو عظيم بهذا المقدار وجليل القدر، **لماذا ظهر في الجسد؟** وحتى لا تتوهم أنه كان من مستلزمات طبيعة مخلِّصنا أن يلبس جسداً؛ لذلك لابد أن تعرف أن ذاك الذي هو بطبيعته غير جسداني، ظهر لنا في جسدٍ بشري من أجل خلاصنا بسبب صلاح أبيه ومحبته للإنسان. وفضلاً عن ذلك، فإنه من اللائق ونحن نُقدِّم هذا البحث أن نتكلَّم أولاً عن خلقة كل الأشياء وعن الله بارئها، لكي بذلك يمكن للمرء أن يدرك جيداً أن تجديد الخليقة كان من عمل "الكلمة" ذاته الذي خلقها في البداية؛ إذ أنه سوف يتضح (عندئذ) أنه لم يكن أمراً متناقضاً أن يُجرِي الآب

خلاص الخليقة بذاك الذي خلقها به أولاً.][٤]

ولهذا فإنه من أجل خلاصنا صار "الكلمة" خالقنا متجسِّداً. وهذا هو ما تحدَّث عنه القديس أثناسيوس في "الرسالة إلى الوثنيين"، وهو ما يقرِّره فيما بعد بأكثر وضوح:

[قد تندهش وتتساءل: لماذا نبحث الآن، ونحن في العالم، عن أصل البشرية، طالما نحن نتحدث عن تجسُّد الكلمة. ولكن هذا الأمر ليس بغريب على الإطلاق عن رسالتنا هذه، لأننا عند التحدُّث عن ظهور المخلِّص بيننا، فإنه من الضروري أن نتحدث أيضاً عن أصل البشر، لكي تعرف بوضوح أن قضيتنا كانت هي السبب في نزوله إلينا، وأن معصيتنا استدعت محبة "الكلمة" للإنسان، لكي يأتي الرب إلينا ويظهر بين الناس. لأننا كنا نحن هدف تجسُّده، ومن أجل خلاصنا أظهر محبته العُظمى تجاه الإنسان في كونه وُلِد وظهر في جسدٍ بشري.][٥]

أولى غايات التجسُّد: هي الخلقة الجديدة:

لقد خلق الله الإنسان في النعمة، ولكن الإنسان رفض الله[٦]. ومع ذلك، كان من غير المعقول أن يترك الله عمله العظيم لكي يهلك تماما؛ لهذا عهد إلى "حكمته" أن يفتدي الإنسان بطريقةٍ ما[٧]. ولكن لم

(٤) *De Incarn. Verbi*, n.1; cf. *Contra Arianos*, III,29-31.

(٥) *De Inc. Verbi*, n. 4.

(٦) Ibid., n. 5; *De Decr.*, n. 6.

(٧) *De Inc. Verbi*, n. 6,8.

يكن في استطاعة أحد أن يستعيد للإنسان كل شيء سوى "الكلمة" الذي يفوق الكل، ولم يكن أحد يليق به، بل ويلزم أن يجعل الإنسان غير فاسدٍ، سوى "الكلمة" الذي خلق كل شيء من العدم(٨). لهذا السبب، فإن "الكلمة" الذي خلق الإنسان صار إنساناً لكي يُجدِّد خلقة الإنسان:

[لأجل هذا الغرض، جاء كلمة الله إلى عالمنا، وهو الذي بلا جسد، والعديم الفساد، وغير المادي؛ معٍ أنه لم يكن من قبل بعيداً عنا... لقد أشفق على جنسنا وترفّق بضعفنا. لقد رثى لفسادنا، وإذ لم يستطع أن يحتمل أن يرى الموت تصير له السيادة فيُفنيٍ ما خلقه، ويتلاشى عمل الآب في البشر؛ أخذ لنفسه جسداً لا يختلف عن جسدنا... لأنه وهو القوي وخالق كل شيء أعدَّ لنفسه الجسد في العذراء كهيكل له، وجعله جسده الخاص، واتخذه كأداة له يُعرف بواسطته، وفيه يحلّ. وهكذا إذ قد أخذ من أجسادنا جسداً مماثلاً لطبيعتنا، وأسلمه إلى الموت عن الجميع ـ لأن الجميع كانوا تحت قصاص فساد الموت ـ قدَّمه (أي هذا الجسد) للآب. وكل هذا فعله بالأكثر لسبب محبته للبشر، وذلك لكي إذ يموت الكل فيه، يُبطَل الناموس الذي كان يقضي بهلاك البشر ـ طالما أن سلطانه قد أُكمل في جسد الرب، ولم يَعُدْ له أي دعوى ضد البشر الذين لهم طبيعة مماثلة ـ ولكي بعد أن تحوَّل البشر إلى الفساد،

---

(٨) Ibid., n. 7.

يُعيدهم هو إلى عدم الفساد ويحييهم من الموت بجعله الجسد خاصاً له؛ وبنعمة القيامة، يزيح الموت عنهم وينقذهم كما يُنزع القش من النار.](٩)

وأيضاً:

[وإذ رأى "الكلمة" أن فساد البشر لا يمكن أن يبطل إلا بالموت كشرط مطلق، وأنه يستحيل أن يتحمَّل "الكلمة" الموت لكونه غير مائت، ولأنه ابن الآب؛ لهذا أخذ لنفسه جسداً قابلاً للموت، لكي باتحاده بـ "الكلمة" الذي هو فوق الكل، يكون جديراً بأن يموت عن الكل، وبسبب "الكلمة" الذي فيه، يبقى في عدم فساد، ولكي يبطل الفساد من الكل منذ الآن بواسطة نعمة القيامة... وإذ قد اتحد ابن الله عديم الفساد بالجميع بطبيعة مماثلة، فهو بطبيعة الحال قد ألبس الكل عدم الفساد، بوعد القيامة. وهكذا لم يَعُد لفساد الموت أية قوة ضد البشر، بسبب "الكلمة" الذي يسكن فيهم بموجب جسده الواحد.](١٠)

ومن غايات التجسُّد: إعادة عدم الفساد:

وفي الفصل التالي يُذكِّرنا القديس أثناسيوس أنه كان يتحدث عن السبب الأول الذي من أجله تأنَّس المخلِّص، أي لكي يعيد للإنسان عدم الفساد بموته على الصليب(١١). ثم يستمر في حديثه لكي يُظهر ملاءمة

---

(٩) Ibid., n. 8.

(١٠) Ibid., n. 9.

(١١) Ibid., n. 10.

التجسُّد للسبب الثاني: وهو **إعلان الله**(١٢). ثم يختم حديثه بتلخيص السببين هكذا:

[لأنه بالتجسُّد كان المخلِّص سيُتمم عمليتي المحبة: فهو **أولاً** قد أبعد الموت عنا وجدَّدنا ثانية؛ **وثانياً**، إذ هو غير ظاهر ولا منظور، ظهر وجعل نفسه معروفاً بواسطة أعماله أنه كلمة الآب مُدبِّر وملك الكون.](١٣)

وفيما بعد يعود القديس أثناسيوس أيضاً فيُلخِّص الأهداف المتنوعة للتجسُّد، مؤكِّداً أن "الكلمة" وحده كان مؤهَّلاً أن يكمِّلها.

[لقد أوضحنا جزئياً - على قدر الاستطاعة وعلى قدر ما أمكننا فهمه - سبب ظهوره جسدياً، أنه لم يكن ممكناً لأي أحد آخر أن يُحوِّل الفاسد إلى عدم فساد إلاَّ المخلِّص نفسه الذي هو أيضاً من البداية قد خلق كل شيء من العدم؛ وأنه لم يكن ممكناً لأي أحد آخر أن يخلق من جديد للبشر مثال الصورة إلاَّ صورة الآب؛ وأنه لم يكن ممكناً لأي أحد آخر أن يُقدِّم المائت كغير مائت إلاَّ ذاك الذي هو نفسه الحياة، يسوع المسيح ربنا؛ ولم يكن ممكناً لأي أحد آخر أن يُعلِّم البشر عن الآب، ويقضي على عبادة الأوثان إلاَّ "الكلمة" الذي يُدبِّر الكل، والذي هو وحده الابن الوحيد الحقيقي للآب.](١٤)

---

(١٢) Ibid., n. 11-16.

(١٣) Ibid., n. 16.

(١٤) Ibid., n. 20.

فلو أن أحداً كان قد تساءل: لماذا لم يتخذ الكلمة طبيعة أخرى أسمى لكي يُكمِل بها العمل، فكان القديس أثناسيوس يُجيبه أن الإنسان وحده هو الذي ضلٍ واحتاجٍ إلى الشفاء(١٥). إن هذا السبب كافٍ لكي يصير الكلمة إنساناً. **فحقيقة أن الإنسان كان في حاجة إلى الفداء هو سببٌ كافٍ** لأن يتخذ "الكلمة" لنفسه طبيعة الإنسان، ولكنه ليس من الضروري أن يكون ذلك هو السبب القاطع أو الأخير.

ثم إنه إذا كان "الكلمة" الذي خلق الإنسان هو الذي خلَّصه أيضاً، ولكن ليس بمجرد نطق إلهي، كما في الخلق، فسبب ذلك هو أنه حينما خُلق الإنسان لم يكن هناك أي شيء موجود على الإطلاق يمكن استخدامه كوسيلة لذلك؛ بينما عند خلاص الإنسان كان الإنسان موجودًا بالفعل، ولكنه كان مائلاً إلى الفساد. وفضلاً عن ذلك، فقد كان الموت **متأصِّلاً** في طبيعة الإنسان، ولهذا كان لابد أن **تتأصَّل** الحياة في الإنسان؛ أي أن "الكلمة" الذي هو "عدم الفساد" كان لابد أن يتحد بالجسد لكي يجعله عديم الفساد(١٦).

من غايات التجسُّد: تجديد الإنسان:

في الأسباب التي قدمناها، نرى القديس أثناسيوس حقًّا يجعل التجسُّد يهدف إلى عمل التجديد؛ بل وحتى استعلان الآب من خلال "الكلمة المتجسد" يتبع **منهج التجديد**: فكان على "الكلمة" أيضاً أن يجدد معرفة الآب التي سبق أن أعطاها الكلمة عند الخلق، ولكنها

---

(١٥) Ibid., n. 43.

(١٦) Ibid., n. 44.

فُقدت بفعل الخطية. ومع ذلك فإن القديس أثناسيوس عند تعرُّضه للحديث عن هذين العملَيْن: **الخلق والتجديد**، لا نجده يقول أصلاً إن عمل التجديد كان هو السبب الوحيد في التجسُّد. إنه حقًّا يقرر أنه: "لما كان ضرورياً وفاء **الدَّيْن المستحق على الجميع** ـ كما بينت سابقاً ـ **كان الجميع مستحقين الموت**، الأمر الذي من أجله، على الأخص، أتى المسيح ليعيش بيننا."(١٧)

الدَّيْن هو الموت:

ولكن كلمة "على الأخص" هذه لا ينبغي أن تؤخذ بمعنى السبب الأصلي أو النهائي للتجسُّد. إنها بكل بساطة تعني "السبب الأكثر أهمية" بالنظر إلى حالة الإنسان المائتة، تلك التي كان يلزم أن يتحرر الإنسان منها. وكما لاحظنا في البداية، فإن القديس أثناسيوس في كِلا المؤلَّفين كان يتتبع منهج التنفيذ. فهو يريد أن يقدِّم أسباباً لتجسُّد "الكلمة" لكي يُظهر أنه رغم أن "الكلمة" إله وأزلي، فإنه ما زالت هناك أسباب لاتخاذ الكلمة جسداً لنفسه في الزمن؛ ولم يكن على القديس أثناسيوس أن يحدد السبب الذي كان أصلاً في فكر الله؛ فأي سبب للتجسُّد يمكن أن يبرهن على هذه النقطة. وفي الحقيقة، فإن الحاجة إلى الموت من أجل الإنسان، وإظهار الآب للإنسان؛ كانا سببين مقنعين بما فيه الكفاية لأنهما كانا أكثر وضوحاً.

---

(١٧) Ibid., n. 20.

كلمة الله هو وحده الكفؤ للتجسُّد:

وكما رأينا، فإن القديس أثناسيوس يشدِّد على أن "الكلمة" وحده كان هو الكفؤ لأن يجدد الإنسان، وأنه تجسَّد من أجل هذا السبب. ولكن لا ينبغي أن نخطئ ونستخلص من ذلك أن "الكلمة" صار جسداً أولاً وأخيراً بسبب عمل التجديد. هذا الاستنتاج بكل بساطة غير جائز. والحقيقة أن العكس قد يبدو صحيحاً. فلو أن "الكلمة" المتجسِّد كان فقط سيجعل الإنسان غير فاسد ويعطيه معرفة الآب، لكان يبدو أن "الكلمة" كان في فكره منذ البداية ذاتها أن يصير متجسداً، طالما أن الإنسان كان منذ البداية مُعيَّناً للمعرفة ولعدم الفساد. وهذه الفكرة تتكرر فيما بعد أكثر من مرة. أما الآن، فلنتذكَّر أن القديس أثناسيوس يتبع الترتيب الزمني في شرحه، وأنه من الواضح أن **عدم الفساد** هو الهدف النهائي لمجيء المسيح، بالرغم من أنه كان ينبغي أن يجتاز الموت.

وبعد أن كتب القديس أثناسيوس هاتين الدرَّتين من الكتابات الآبائية بوقتٍ قليل، حدث أن هرطقة أريوس تقوَّت وانتشرت جداً. فعمد إلى قلمه ليردَّ عليها بشدة ويدحضها. كان الأريوسيون يزعمون أن "الكلمة"، يسوع المسيح، هو مجرد مخلوق. وأن الله عندما أراد أن يخلقنا خلق أولاً "الكلمة" لكي بواسطته كما بأداة يمكنه أن يخلقنا(١٨). وكان أحد البراهين الرئيسية التي يستندون إليها هو ما جاء في سفر الأمثال ٢٢:٨، الذي يقول بحسب الترجمة السبعينية (التي كانوا

(١٨) *Discourse* I,5; II,25.

يعتمدون عليها): «**الرب قناني أول طرقه لأجل أعماله**». القديس أثناسيوس يشدِّد على أنهم أخطأوا تفسير هذه الآية التي لا تشير إلى "الكلمة" كما هو، بل إلى "تجسُّد الكلمة". وقد خصص الكتاب الأول بأكمله بالإضافة إلى ٤٣ بنداً من الكتاب الثاني من مؤلَّفه "ضد الأريوسيين" لكي يثبت ألوهية "الكلمة". وبعد أن أرسى ذلك الحق بثباتٍ من نصوصٍ متعددة من الكتاب المقدس، كرَّس بقية الكتاب الثاني لشرح المعنى الصحيح للآية المذكورة عاليه.

وقديسنا الجليل لا يمل من كثرة التكرار في تفسيره لنص آية سفر الأمثال، أن النص يشير إلى الكلمة المتجسِّد. ولكن إذا كان يشير إلى الكلمة المتجسِّد، فما هو القصد الذي من أجله **صار** الكلمة جسداً؟ ويُجيبنا القديس أثناسيوس بكلمات الآية نفسها: إن الكلمة صار جسداً "لأجل أعماله". وما الذي يعنيه هذا؟ يقول: **لأجل خلاصنا**. والعبارة التي يتضمنها قانون الإيمان النيقاوي: "من أجلنا ومن أجل خلاصنا"، تظل دائماً على شفتي معلِّم مجمع نيقية. وهي تُعبِّر عن عمل الكلمة المتجسِّد بإيجاز تام. وهناك عدة عناصر تدخل ضمن مفهوم الخلاص هذا، فهو ليس مجرد مترادف مع الفداء أو تحرُّر من الخطية فقط، ولكن أكثر من ذلك، كما سنرى فيما بعد.

- ٢ -

المسيح فادينا

القديس أثناسيوس يعتبر الفداء من الخطية كأحد الأعمال المتصلة بتدبير الخلاص. وهكذا فالمسيح، بمعنى آخر، تجسَّد لأجل فدائنا، وصار بدايةً وأساساً لتجديدنا ولخلقتنا الجديدة(١). وتتكرر هذه الفكرة كثيراً في كتابات القديس أثناسيوس حتى أننا لا نحتاج أن نستطرد في إثباتها. ولكن النقطة الخاصة التي تهمنا هي: هل هذا يعني أن المسيح ما كان ليتجسَّد أبداً ما لم تكن هناك حاجة إلى تجديد الخلقة؟ فالمفهوم البسيط هو أن "الكلمة" صار جسداً لكي يفتدينا. ويمكننا أن نقول إنه مثل الكثير من النصوص الكتابية الأخرى، لا يؤخذ هذا التصريح بالمعنى المطلق. ومع ذلك، فهناك بعض العبارات نجد فيها أن القديس أثناسيوس - على الأقل حسب الظاهر - يجعل الفداء من الخطية الغاية النهائية للتجسُّد.

وحاجة الإنسان هذه كدافع للتجسُّد يذكرها القديس أثناسيوس في مواضع أخرى:

[لأنه من قبل أن توجد خليقة الله كان الابن موجوداً دائماً، ولم تكن هناك أية حاجة لكي يتجسَّد. ولكن عندما خُلقت هذه

---

(١) Ibid., II,7,14,47,51,55,63,66,73.

المصنوعات، وعندما صارت الحاجة ماسة بعد ذلك لتدبير تجديدها؛ عندئذ قدَّم "الكلمة" ذاته لكي ينزل ويصير مُشابهاً لنا.](٢)

[أما صيرورته إنساناً فما كانت لتحدث لو لم تكن حاجة البشر قد صارت هي الدافع؛ فتبعاً لذلك، إذن، لا يكون الابن مخلوقاً.](٣)

والجملة الأخيرة في النص المذكور تؤكِّد ما سبق أن عرفناه. فالقديس أثناسيوس يثبت ألوهية الكلمة من حقيقة أنه لم يكن هناك أية علة سابقة للوجود الأزلي للكلمة؛ ولكنه حينما صار جسداً، أي متجسِّداً في طبيعة بشرية، عندئذ فقط جاء ذِكْر الأسباب التي من أجلها تجسَّد. وهذه الأسباب هي حاجة الإنسان للفداء، ولكن القديس أثناسيوس لا يحصر هذه الحاجة في الفداء فقط، إذ تتضمن هذه الحاجة أيضاً "**التأليه**"، وهو الذي سوف نسمع عنه كثيراً في كتاباته. **فالتأليه** كان قطعاً هو حاجة الإنسان وهو بعيدٌ عن الخطية.

ويمكننا أن نقول إن القديس أثناسيوس كان يتكلَّم عن مجيء المسيح في جسدٍ قابل للتألُّم passible، أي في جسدٍ يمكن أن يموت. وبالتأكيد فإنه لم يكن ليأخذ مثل هذا الجسد ما لم يكن هناك حاجة للإنسان أن يُفتدَى من الموت. لأن الحاجة إلى جسدٍ قابل للتألُّم والموت، هي من أجل أن يفتدي المسيحُ الإنسانَ.

---

(٢) Ibid., II,51,52.

(٣) Ibid., II,56.

- ٣ -

المسيح وسيط التأليه

في دراسة عن القديس إيرينيئوس(١)، رأينا أنه كان على الدوام يولي اهتماماً كبيراً بنظريته عن انجماع كل شيء في المسيح re-capitulation. والقديس أثناسيوس أيضاً كثيراً ما يعود إلى الحديث عن فكرته المحببة لنفسه: التأليه = θεωποίησις. وكان في ذلك على ما يبدو يعتمد على القديس إيرينيئوس أيضاً(٢)، فقد كان مُعجباً جداً بهذه الفكرة. والدارسون لتعليم القديس أثناسيوس اعتبروا نظرية التأليه هذه من أكثر معطيات علم اللاهوت أهمية(٣). ولكي نفهم السبب في ذلك يجب أن نتذكّر أن هرطقة أريوس كانت قبل كل شيء نظرية في التأليه، ولكنها كانت نظرية زائفة. فبحسب أريوس لا يُعتبر "الكلمة" أو الابن إلهاً، بل مجرد مخلوق تألّه بطريقة خاصة جداً، وإن كان ما يزال هو مُشابهاً لنا(٤). ويُقاوِم القديس أثناسيوس هذا الخطأ

---

(١) Franciscan Studies, XXVI, (1945), 128-134.

(٢) H. Straetter, *Die Erloesungslehre des hl. Athanasius* (Freiburg in B., 1894), pp. 3-6,11-13.

(٣) J. A. Moehler, *Athanasius der Grosse und die Kirche seiner Zeit*, (Mainz, Kupferberg, 1884), p. 220.

(٤) In *Thalia* of Arius, *Con. Ar.*, I,9.

باجتهادٍ عظيم، ويُشدِّد على أن الكلمة هو إله حق. ويُعبِّر القديس أثناسيوس مراراً وتكراراً عن حقيقة تأليهنا نحن(٥)، وهي تحتل محور تعليمه عن المسيح Christology. إنها أسلوبه في التعبير عن عقيدة الاتحاد السرِّي للجميع في المسيح(٦)، وهي، فضلاً عن ذلك، تُعبِّر بإيجاز وإنما بشكلٍ تام، عن دور المخلِّص في الكون(٧).

القديس أثناسيوس يخبرنا ليس فقط عن حقيقة أن الإنسان يتألَّه الآن من خلال الكلمة المتجسِّد، بل ويُشدِّد على أن تأليهنا هو هدف التجسُّد ذاته: "لأنه صار إنساناً لكي نصير نحن مؤلَّهين."(٨)

وبعد أن شرح أن تمجيد المسيح لا يكون فقط بصيرورته ابناً وإلهاً، كتب يقول:

[فإذا كان قد نزل لكي يرفعنا، فهو - إذن - لم يحصل على اسم ابن وإله كمكافأة؛ بل بالأحرى فإنه هو نفسه قد جعلنا أبناءً للآب، وألَّه الناس بكونه صار هو نفسه إنساناً. لذلك فهو لم يكن إنساناً ثم صار فيما بعد إلهاً؛ بل بالعكس إذ هو الإله صار فيما بعد إنساناً لكي بالأحرى يؤلِّهنا.](٩)

---

(٥) *Con. Ar.*, I,9,16,38,39,42.III,19,23,33,40,53; *Ad Max.*, 2; *Ad Serap.*, I,24,25; *De Decr.*, 14.

(٦) Mersch, Vol. I,374-409.

(٧) Berchem, XV (1938), 516-558.

(٨) *De Incr. V.*, n. 54.

(٩) *Con. Ar.* I,38,39.

وكتب أيضاً يقول:

[لأن الجسد لم يجلب تدنِّياً ἀδοξίαν "للكلمة". حاشا أن يكون ذلك! بل بالأحرى إنه تمجَّد بواسطته. كما أنه ليس لأن الابن الذي وهو إله بطبيعته أخذ لنفسه طبيعة عبد، يكون قد نقص بالنسبة إلى لاهوته؛ بل بالأحرى إنه صار مُحرِّراً لكل جسد ولكل خليقة. وإذا كان الله قد أرسل ابنه، مولودًا من امرأة، فلا يكون هذا سبب تَدَنٍّ لنا؛ بل بالأحرى سبب مجدٍ ونعمةٍ عظيمتين. لأنه قد صار إنساناً لكي يؤلِّهنا في ذاته، وقد حُبل به من امرأة ووُلِد من عذراء لكي ينقل إلى نفسه جيلنا الخاطئ، ولكي نستطيع منذ الآن أن نصير جنساً مقدَّساً وشركاء للطبيعة الإلهية، كما كتب القديس بطرس (٢بط ١: ٤).](١٠)

والآن، بينما يكون من الصواب تماماً أن نقول إن الكلمة صار جسداً لكي يؤلِّهنا، حتى ولو أنَّ ذلك لم يكن تدبيراً منفصلاً عن الخطية والفداء من الخطية؛ إلاَّ أن إصرار القديس أثناسيوس على التأليه كغاية للتجسُّد، يوضِّح أنه يؤكِّد على حقيقة أخرى أن التأليه من خلال التجسد كان في التدبير الأصلي لخلقة الإنسان، وهو يبدو كمَن يتعجَّل متخطياً موضوع الفداء من الخطية لكيما يُشدِّد على النقطة الأكثر أهمية، أي التأليه في المسيح وبواسطته. هذا الاستنتاج سوف يتقوَّى كما سنسرده فيما بعد. فهو يتساءل مؤكِّداً: وكيف يمكن أن يكون هناك تأليه بدون الابن المتجسِّد أو قبله؟ وفي النصوص التالية

---

(١٠) *Ad Adelphium*, n. 4.

سوف يظهر أن "الكلمة" هنا هو الكلمة المتجسِّد. فقد كان ينبغي أن يصير إنساناً لكي يستطيع الإنسان أن يمتلك المواهب بطريقة مضمونة، لأن المخلوق المجرَّد مثل آدم لم يكن قادراً أن يحفظ هذه المواهب مأمونةً على الدوام. ولذلك يكتب القديس أثناسيوس فيقول:

[... بل بالحري إذ هو الله، فقد أخذ الجسد لنفسه، وبوجوده في الجسد فإنه يؤلِّه الجسد... فحينما يستعمل المخلِّص الكلمات التي يتعلَّلون بها، مثل «دُفِعَ إليَّ كل سلطان»، و«مجِّد ابنك»، وقول بطرس: "إنه قد أُعطي له سلطان" (أع ١٠:٣٨)؛ فنحن نفهم كل هذه الآيات بنفس المعنى، أي إنسانيا، لأنه بسبب الجسد قال كل هذا. فهو رغم أنه (ككلمة) لم يكن محتاجاً، إلاَّ أنه يُقال عنه إنَّ **ما أخذه قد أخذه إنسانياً**؛ وأنه، مرة أخرى، ما دام الرب نفسه هو الذي أخذ، وقد استقرت الموهبة معه، فإنَّ النعمة تبقى مضمونة لأن الإنسان المجرَّد حينما يأخذ فهو يكون مُعرَّضاً لأن يفقد ما أخذه، كما ظهر في حالة آدم الذي مع أنه أخذ إلاَّ أنه فَقَدَ ما أخذه. والآن لكي لا تُفقد النعمة أبداً، ولكي تظل محفوظة للبشر بشكلٍ أكيد، فإنه هو نفسه يجعل العطية لنفسه. ولهذا يقول إنه أخذ سلطاناً، كإنسان، وهو السلطان الذي له دائماً كإله؛ ويقول: «مجِّدني»، وهو الذي يُمجِّد الآخرين، لكي يظهر أن له جسداً يحتاج إلى هذه الأمور.][١١]

وحتى الأريوسيون يُقرُّون أن "الكلمة" كإله مخلوق، قد ألَّه

---

(١١) *Ibid.*, III,38.

الآخرين. والقديس أثناسيوس يعترض بشدة، فيقول إن الذي يؤلِّه (الآخرين) ينبغي أن يكون هو نفسه إلهاً، وفي الوقت نفسه يكون متَّحداً بالمخلوق الذي يريد أن يؤلِّهه:

[وإذا أردنا أن نعرف ما هو الربح من وراء هذا، سوف نجد أنه كما يلي: إن "الكلمة صار جسداً" لكي يقدِّم جسده للكل، وإننا إذ نشترك في روحه نصير قادرين أن نتألَّه، الأمر الذي لم يكن ممكناً أن نناله إلاَّ بواسطة لِبْسه جسدنا المخلوق، لأنه منذ الآن فصاعداً بدأنا ندعو أنفسنا "رجال الله" و"رجال المسيح"... لأنه لم ينقص بلبسه الجسد، بل بالأحرى قد مجَّده وجعله غير مائت.](١٢)

ولهذا كان تجسُّد الله ضرورياً للتأليه، ذلك لأن الإنسان كان مجرد مخلوق، وكمخلوق مجرَّد فهو لا يستطيع أن يقتني التأليه سوى بالمشاركة، كما أنه لا يقدر أبداً أن يؤلِّه آخرين. وهذا هو السبب، في أن آدم لم يُقصَد به أبداً أن يكون مصدر التأليه منفصلاً عن المسيح. ولذلك يكتب القديس أثناسيوس فيقول:

[وأيضاً، كما ذكرنا من قبل، أن الابن ليس هو هكذا، أي إلهاً بالمشاركة؛ بينما كل المخلوقات تنال نعمة من الله بالمشاركة، وأنه هو حكمة وكلمة الآب الذي بواسطته يتشارك الكل. فمن الواضح أنه بكونه هو قوة الآب التي تؤلِّه وتُنير، والذي فيه يؤلَّه

(١٢) *De Decretis*, n. 14.

الكل ويُحيون، لذلك فهو ليس غريباً في الجوهر عن الآب؛ بل مساوياً له في الجوهر، لأننا بمشاركته نصير شركاء الآب، بما أن الكلمة هو كلمة الآب. فلو أنه كان هو أيضاً كلمة الآب بالمشاركة، ولم يكن هو بنفسه الإله وصورة الآب؛ فما كان ليؤلِّه (الآخرين) لكونه هو نفسه يتألَّه. لأنه من غير المستطاع أن الذي يأخذ بالمشاركة، يُعطي منها للآخرين، طالما كان ما عنده ليس هو له بل للمُعطِي، وما أخذه من نعمةٍ هي بالكاد تكفي لنفسه.](١٣)

في بعض النصوص التي أوردناها لا شكَّ أن القارئ لاحظ أن **الإنسان الخاطئ هو الذي يحتاج** إلى أن يؤلَّه. ومع ذلك فإن الحاجة إلى الإله المتجسِّد لكي يؤلِّه الإنسان لا تأتي فقط وبصفة مبدئية من حقيقة أن طبيعة الإنسان قد فسدت بالخطية؛ بل من حقيقة أن الإنسان هو مجرد مخلوق. فآدم لم يكن أساساً مستحقاً للنعمة، ذلك لأنه امتلكها فقط من الخارج وليس من الداخل؛ أي أنه لم تكن لديه النعمة متَّحدة بجسده كما كانت بالفعل في المسيح. ولكن مثل هذا الاتحاد بين الله والإنسان كان ضرورياً كأساسٍ راسخٍ للقداسة(١٤). ويقول القديس أثناسيوس بهذا الصدد:

[ومرة أخرى، لو كان الابن مخلوقاً، لظل الإنسان مائتاً كما كان من قبل، بما أنه لم يكن متحداً مع الله، لأنه لا يقدر مخلوقٌ

---

(١٣) *De Synodis*, n. 51.

(١٤) *Con. Ar.*, II, 68.

أن يوحِّد المخلوقات مع الله، إذ أنه هو نفسه (كمخلوق) يحتاج إلى آخر كي يوحِّده بالله؛ وليس في وسع جزءٍ من الخليقة أن يكون سببَ خلاصٍ للخليقة، لأنه سيكون هو نفسه في حاجةٍ إلى الخلاص.][١٥]

وهذا حقيقي، حتى ولو كان الله قد استخدم مخلوقاً مجرَّداً، كأداة للتأليه؛ لأن تلك هي بالضبط بدعة أريوس التي يحاربها القديس أثناسيوس. ونلاحظ مرة أخرى في كتاباته أنه يقول:

[ولذلك فقد لَبِسَ الجسد البشري المخلوق، ولكن بعد أن جدَّده كخالق ليؤلّهه في نفسه؛ وهكذا يُدخلنا جميعاً إلى ملكوت السموات على مثال صورته. لأنه ما كان للإنسان أن يؤلّه لو أنه اتحد بمخلوق، ما لم يكن الابن إلهاً حقيقياً؛ وما كان للإنسان أن يقف في حضرة الآب، ما لم يكن الذي لَبِسَ الجسد هو بالطبيعة كلمته الحقيقي.

وكما أنه لو لم يكن الجسد الذي لبسه "الكلمة" هو بطبيعته جسداً بشرياً، لَمَا كنَّا قد تحرَّرنا من الخطية واللعنة ـ حيث إنه في هذه الحالة لا يكون هناك شيء مشترك بيننا وبين ما هو غريب (عنا) ـ هكذا أيضاً لم يكن للإنسان أن يؤلَّه ما لم يكن "الكلمة" الذي "صار جسداً" هو ابن طبيعي حقيقي وذاتي من الآب. لأنه على هذا الأساس صار الاتحاد بهذه الصورة حتى يُوحِّد ما هو بالطبيعة بشري مع هذا الذي له طبيعة الألوهية،

---

(١٥) *Ibid.*, II,69.

ويصير خلاص الإنسان وتأليهه مؤكَّدَيْن.](١٦)

فمن أجل الخلاص والتأليه، إذن، كان لابد أن يتجسَّد كلمة الله. وحتى بالرغم من شرح القديس أثناسيوس وتوضيحه لحاجة الإنسان إلى الفداء، إلاَّ أن هذه الحاجة ليست هي السبب النهائي - بحسب تعليمه - لضرورة التجسُّد. فالسبب النهائي هو في حقيقة الأمر أن الإنسان كان مجرد مخلوق، ويلزم أنَّ الذي يؤلِّه الإنسان يكون إلهاً متأنِّساً. إذن، فلأنه كما كان مُعيَّناً منذ البداية أن يتم تأليه الإنسان؛ هكذا كان في فكر "الكلمة" منذ البداية أن يصير إنساناً. والاتحاد مع الله - كمثل التأليه - يستحيل أيضاً بدون التجسُّد.

ولذلك يكتب القديس أثناسيوس فيقول:

[لأنه لم يَقُل: "من أجل هذا مسحك" (مز ٤٥: ٧) لكي تصير إلهاً أو ملكاً أو ابناً أو كلمة، لأنه كان هكذا من قبل وهو دائماً هكذا، كما سبق وأوضحنا؛ بل بالحري: "بما أنك أنت إله وملك، لهذا أيضاً مُسحتَ؛ لأنه لم يكن في وسع أحد آخر أن يوحِّد الإنسان مع الروح القدس سواك أنت الذي هو صورة الآب، تلك الصورة التي بحسبها خُلقنا منذ البدء، لأن الروح هو أيضاً روحك أنت". وكل هذا حدث لأن طبيعة المخلوقات لا يُعتمد عليها بخصوص هذا الأمر، لأنه حتى الملائكة أيضاً تمرَّدوا والبشر عَصَوْا. لذلك كانت الحاجة إلى الله، "والكلمة هو الله"،

---

(١٦) *Ibid.*, II,70.

لكي يُحرِّر الذين صاروا تحت هذه اللعنة.](١٧)

والحقيقة أن الإنسان، وحتى الملائكة، أخطأوا؛ ولذلك لم يكن بإمكانهم أن يجعلونا نتحد مع الله. ولكن ليس هذا هو السبب الحقيقي عند القديس أثناسيوس، فهو يبرهن ليس فقط على حقيقة أن الإنسان والملائكة قد أخطأوا؛ بل على أساس حقيقة أنهم متغيِّرون وغير معصومين من الخطأ. فكان، إذن، على الإله غير المتغير والمعصوم من الخطأ، أن يكون هو الذي يوحِّد الإنسان بشدةٍ مع الله، وذلك باتحاده بالإنسان.

آدم الأول قد أخطأ، والآن بما أن من طبيعة المخلوقات أن تتغير، كان ينبغي أن يكون آدم الثاني غير متغير؛ لكي إذا كانت الحية ستهاجم الإنسان مرة أخرى، فلن تقدر أن تهزمه(١٨). وبغير ذلك تكون هناك دائماً حاجة إلى غفرانات للخطايا لا حصر لها. والقديس أثناسيوس هنا ينظر إلى الموضوع من وجهة نظر تاريخية (أي بحسب الترتيب الزمني). آدم أخطأ، ولذلك يجب أن يكون المسيح (آدم الثاني) غير متغيِّر. ولكن هذا لا يعني أن الله شاء أن يأتي المسيح فقط بعد خطية آدم، فهو في الحقيقة أراد أن يكون المسيح هو الأساس غير المتغيِّر أولاً. وسوف نستفيض في شرح هذا الأمر فيما بعد.

Ibid., I,49. (١٧)

Ibid., I,51. (١٨)

- ٤ -

الابن بالطبيعة لازم لبنوّتنا بالتبنّي

"البنوَّة المُتبنَّاة" مصطلح آخر يعشقه القديس أثناسيوس للغاية، فهو جزء من "تأليهنا". فنحن حين نتألّه (أي ننال الشركة في الطبيعة الإلهية) بواسطة ابن الله نصير أبناء بالتبنّي[١]. إن بنوّتنا هي بالتشبُّه ببنوَّة المسيح الطبيعية[٢]. وبسبب حقيقة أن ابن الله بالطبيعة أخذ جسدنا، فإننا نحن الذين عن طريقه صرنا منتسبين إليه، نحصل على لقب البنوَّة:

[لأنه لسبب علاقتنا بجسده قد صرنا هيكل الله، وبالتالي قد جُعلنا أبناء الله، وذلك حتى يُعبَد الرب فينا الآن أيضاً.][٣]

وحقيقة أننا نصير أبناء الله من خلال الابن المتجسد، فهذا برهان على أن الله اختار التجسُّد من أجل أن يتبنانا. والقديس أثناسيوس لا يترك لنا أي مجال للشك من جهة هذا الأمر. فهو يقرر بوضوح أن ذلك كان هو الغاية من التجسد. فالابن الأزلي "صار إنساناً من أجل أن يصير الناس

---

(١) *Con. Ar.*, II, 72; III,19.

(٢) *Ibid.*, III,19.

(٣) *Ibid.*, I,43; *De Decretis*, n. 31.

أبناء الله": "فلكي يحدث هذا فقد "صار الكلمة جسداً" لكي يجعل الإنسان قادراً على تقبُّل الألوهية"(٤). ومع أن بعض الباحثين لا يعترفون بنسبة كتاب: "التجسُّد وضد الأريوسيين" (*De Incar. et Cont. Ar.*) للقديس أثناسيوس؛ إلاَّ أنهم يجب أن يقبلوا بأن هذا الكتاب يُقدِّم لنا فكر القديس أثناسيوس. إنه يقرر هذه الحقيقة الحاضرة بأجلى وضوح:

[ومن أجل هذا صار ابن الله ابناً للإنسان لكي يصير أبناء الإنسان ـ أي أبناء آدم ـ أبناءً لله. لأن "الكلمة" المولود من فوق من الآب بطريقة لا يُنطق بها ولا يمكن تفسيرها أو إدراكها، والمولود والكائن أبدياً، هو نفسه وُلد على الأرض زمنياً من مريم العذراء والدة الإله، لكي يمكن للمولودين من أسفل أن يولدوا مرة ثانية من فوق، أي من الله. فهو لذلك له أُم على الأرض فقط ونحن لنا آب في السموات. وبناء عليه هو يدعو نفسه ابن الإنسان، لكي يمكن للناس أن يدعوا الله أباهم في السماء. لذلك، فكما أننا نحنٍ عبيد الله، هكذا صرنا أبناء الله، بالمثل فإن رب العبيد صار ابناً مائتاً لعبده الخاص، أي لآدم، حتى يصير أبناء آدم المائتين أبناءً لله. ومن أجل هذا ذاق ابن الله الموت بحسب أبيه الجسدي (آدم) لكيما يتشارك أبناء البشر في حياة الله أبيهم بحسب الروح. فهو، إذن، ابن الله بحسب طبيعته؛ أما نحن فأبناء بالنعمة...](٥)

---

(٤) *Con. Ar.*, II, 59.

(٥) *De Incar. et Con. Ar.*, n. 8.

والفكرة عينها نجدها أيضاً في الكتاب الرابع ضد الأريوسيين:

[ولكنه يقول في بعض الأحيان إنه يُدعى أيضاً أبانا، لأنه هو نفسه قد تشارك في جسدنا. لأنه بناءً على ذلك صار الكلمة جسداً حتى بما أن الكلمة هو ابن، لذلك فبسبب حلول الابن فينا يُدعى أيضاً أبانا.](٦)

كان تجسُّد ابن الله الطبيعي ضرورياً لكي نصير نحن أبناءً لله بالتبنِّي، وذلك ليس لأننا كنا خطاة؛ بل لأننا بطبيعتنا غير قادرين أن نكون أبناء. كان ينبغي حقًّا أن تُرفع الخطية الآن قبل أن يكون بإمكاننا أن ننال التبنِّي، ولكن الحاجة إلى الابن المتجسد (لكي يحدث هذا التبنِّي) تأتي من حقيقة أننا مخلوقون:

[لأنه من غير المستطاع أن يحدث التبنِّي بغير الابن الحقيقي، حيث إنه هو نفسه يقول: «لا أحد يعرف الآب إلا الابن ومَن أراد الابن أن يُعلِن له.» (مت ١١:٢٧)](٧)

والفكرة هنا هي أنه بإمكاننا أن نصير أبناءً بالإيمان بالله فقط، ولكن الابن هو وحده الذي يُعلِن الآب لنا. ولهذا فإن الابن لازم لنا لكي نصير أبناءً. وقطعاً كان يمكن أن يتم ذلك بواسطة الابن في طبيعته غير المخلوقة:

[فهذه هي محبة الله للإنسان أن أولئك الذين هو خالقهم قد

---

(٦) *Con. Ar.*, IV, 22.

(٧) *Ibid.*, I,39.

صار لهم أيضاً أباً بعد ذلك، صار لهم أباً ـ كما قال الرسول ـ عندما حصل الناس المخلوقون على «روح ابنه في قلوبهم صارخاً: أبانا، أيها الآب» (غل ٤:٦). وهؤلاء هم الذين قبلوا "الكلمة" فنالوا منه سلطاناً أن يصيروا أولاد الله؛ لأنه لم يكن بإمكانهم ـ حيث إنهم مخلوقات بالطبيعة ـ أن يصيروا أبناءً بأية طريقة أخرى إلاَّ بأن يقبلوا الابن الحق بالطبيعة. لذا فلكي يحدث هذا فقد "صار الكلمة جسداً"، لكي يجعل الإنسان قادراً على تقبُّل الألوهية.][8]

فإذا كان تجسُّد ابن الله ضرورياً من أجل حصولنا على التبنِّي، كما يقرر القديس أثناسيوس باستمرار، وإذا كان الناس مُعيَّنين لهذا التبنِّي من قبل عند الخلق[9]، فبالأحرى يكون من الواضح أن تجسُّد ابن الله كان مُدبَّراً بواسطة الله من قبل عند الخلق. ولهذا يكرر القديس أثناسيوس المرة بعد الأخرى أن: "ابن الله صار إنساناً لكي يصير الناس أبناءً لله".

---

(٨) *Con. Ar.*, II, 59,62.

(٩) *Ibid.*, II, 76.

يُقرر العالِم برخم Berchem أن التبنِّي الإلهي وعدم الموت هما المبرران الأساسيان للتجسُّد.

- ٥ -

الحاجة إلى المسيح من أجل تمجيدنا

من التأمُّل في **تأليهنا وبنوَّتنا**، ننتقل بالأحرى بسهولة إلى **التأمُّل في مجدنا**. أن نتألَّه يعني أن نتشارك في حياة الله، وذلك بطريقة كاملة بقدر ما هو مستطاع في الحياة في هذا العالم. وأن نكون أبناء الله يعني أن نكون هكذا بطريقة كاملة في السماء. لهذا فالتألُّه والبنوَّة والمجد جميعها تعطي نفس النتائج.

إنها حقيقة أن يسوع هو وسيط مجدنا وحياتنا غير الفاسدة. إنه مُنشئ قيامتنا(١)، وهذا يشمل بحسب تعبير القديس أثناسيوس الحياة المجيدة بأكملها. وهو أيضاً يخبرنا أن خلاصنا ليس أمراً خيالياً، وليس بالجسد فقط؛ بل بالجسد والنفس، الإنسان بجملته. وهذا هو ما قد تم بواسطة الكلمة(٢). و"الكلمة" الذي يتحدث عنه هو الكلمة المتجسد، كما هو واضح من النص السابق.

وفي هذا الموضوع كما في موضوع التألُّه والبنوَّة أيضاً، يقرر القديس أثناسيوس بكل وضوح أن **غرض تجسُّد الكلمة هو أن يجعل**

---

(١) *De Incar. Verbi,* n. 10,7-9.

(٢) *De Epictetum,* n. 7,9; *Con. Ar.*, I, 42, III,57,58; *De Decretis,* n. 14..

الإنسان غير مائت: "ألا تدركون أيضاً أن هذا قد صار وكُتب بسببنا ومن أجلنا، أن الرب الذي صار إنساناً يجعلنا نحن المائتين والزمنيين، غير مائتين ويُدخلنا إلى ملكوت السموات الأبدي"(٣)؟ وهو يعتبر هذا أنه السبب الأول لصيرورة المخلِّص إنساناً، ولكن الخطية ينبغي بالضرورة أن تُزال أولاً(٤).

ولكن متى اختار الله المسيح ليكون هو وسيط مجدنا؟ هل كان ذلك فقط بعد أن رأى الله مسبقاً أن آدم سوف يعصاه؟ من الحقيقة التي يقولها القديس أثناسيوس بكل بساطة أن "الكلمة" صار إنساناً لكي يجعلنا نحن غير مائتين، يمكننا أن نستنتج أن ذلك كان في خطة الله الأصلية. إنه لأمر حقيقي أن توسُّط المسيح بالنسبة لمجدنا يتبع توسُّطه في تحريرنا من الخطية(٥). وهذا يرجع إلى أن الخطية حينما تظل موجودة، فلا يكون ممكناً للإنسان أن يتقبل النعمة أو المجد ما لم تُرفع الخطية أولاً. ومع ذلك فمن الممكن أن يكون المسيح قد تعيَّن وسيطاً للمجد منذ البداية. وهذه النتيجة تفرض نفسها بنوعٍ ما علينا عندما ندرك أن القديس أثناسيوس يشدد على أن تجسُّد "عدم الموت" هو ضروري لكي يصير الإنسان غير مائت، ذلك لأن الإنسان هو مجرد مخلوق، والجسد هو بطبيعته قابل للفساد:

[لذلك كان يجب أن الجسد الذي كان قابلاً للفساد لا يبقى

(٣) *Con. Ar.*, I, 48; *De Incar.* V., n. 7-9.

(٤) *De Incar. V.*, n. 10.

(٥) *Ibid.*, n. 7.

فيما بعد مائتاً حسب طبيعته الخاصة؛ بل بسبب الكلمة الذي لَبِسَه يبقى غير قابل للفساد. لأنه كما أنه حين صار في جسدنا، جعل نفسه مُشابهاً لنا؛ هكذا نحن، حين نقبله، فإننا نتشارك في عدم الموت الذي هو منه.](٦)

وتجسُّد غير المائت هو فقط الذي يقدر أن يجعل الإنسان غير مائت:

[لهذا السبب (أي لأن الموت كان ممتزجاً بالإنسان) كان من المعقول جداً أن يلبس المخلِّص جسداً، حتى إذا ما اتحد الجسد بـ "الحياة" لا يبقى بعد في الموت كمائتٍ؛ بل بما أنه قد لَبِسَ عدم الموت وقام، فإنه يبقى فيما بعد غير مائت.](٧)

فالجسد الذي جعله المسيح يقوم بمجد غير مائت، هو بطبيعته غير مائت بسبب اتحاده بكلمة الله غير المائت:

[ولكن جسد (المسيح) مع كونه ذا طبيعة مائتة، قام أيضاً ـ وهو أمر يفوق طبيعته ـ بسبب "الكلمة" الذي كان فيه؛ وقد توقَّف الفساد الذي فيه بالطبيعة، لأنه إذ قد لبس "الكلمة" الذي هو فوق الإنسان، صار غير قابل للفساد.](٨)

القديس أثناسيوس يُعلِّم أيضاً أن الإنسان كان مُعيَّناً منذ بداية الخليقة لحياةٍ غير مائتة:

---

(٦) *Con. Ar.*, III,57.

(٧) *De Incar. V.*, n. 44.

(٨) *De Epictetum,* n. 10, n. 9.

[لأنه حين أدخلهم إلى فردوسه، أعطاهم ناموساً، حتى إذا حفظوا النعمة واستمروا صالحين، استطاعوا أن يسعدوا بالحياة في الفردوس بلا حزن ولا ألم ولا هَمٍّ، فضلاً عن موعد عدم الفساد في السماء.][٩]

والإنسان قد خُلق أيضاً لكي "يرى" الله ويستنير به[١٠]. وسوف نرى فيما بعد كيف أن تجسُّد الله ـ في فكر القديس أثناسيوس ـ كان ضرورياً للإنسان لكي يرى الله، أي أن يراه برؤية كاملة للمجد. ولذلك أيضاً فإنه من زاوية مجدنا هذه، كان تجسُّد "كلمة الله" في الخطَّة الأصلية للخليقة.

ونختم هذا الفصل بقولنا إنه في كافة الاحتمالات، وبحسب القديس أثناسيوس، قد تعيَّن المسيح في خطة الله الأولى بالذات، كوسيط مجدنا وحياتنا عديمة الفساد؛ لأنه لكي يصير الإنسان القابل للفساد عادماً للفساد، كان يلزم أن يتجسَّد الله عادم الفساد كإنسانٍ قابل للفساد.

---

(٩) *De Inc. V.*, n. 3,4; *Con. Ar.*, III, 57.

(١٠) *Con. Gentes*, n. 7.

- ٦ -

المسيح وسيط معرفتنا

المعرفة الفائقة للطبيعة، كما استُعلنت بواسطة حكمة الله، هي عنصر مهم في العلم اللاهوتي لدى القديس أثناسيوس وتعليمه عن المسيح. ففي كتابه الأول ("ضد الوثنيين") بصفة خاصة نجدها تحتل **الموضع المركزي** باعتبارها الهدف الأصلي للتجسُّد. وفي هذا الكتاب يرتب الموضوع على نهج زمني:

عند الخلق، الله ليس فقط أعطى للإنسان الموهبة الطبيعية لمعرفته فحسب، بل وأعطاه أيضاً المعونة الفائقة التي بواسطتها يمكن للإنسان أن يعرف الله ككلمة وآب(١). وهذا قد فُقد منه بواسطة الخطية. ومع ذلك فإن الله قد احتاط لمثل هذا الوضع السيىء بأن منحه القدرة على معرفته من خلال التأمُّل في الخليقة(٢).

فيقول القديس أثناسيوس:

---

(١) *Contra Gentes*, 2,3,8,30; *De Inc. V.*, n.11.

والقديس أثناسيوس هنا يتحدث عن المعرفة التي تميِّز الإنسان عن الحيوان، ومع ذلك فهي المعرفة التي يمكن للإنسان بواسطتها أن يعرف الثالوث الأقدس.

وهو في: *Con. Ar.* II, 77-82. يكتب عن الصورة الفائقة للطبيعة في المخلوقات عند الخلق.

(٢) *De Inc. V.*, n. 11,12,2; *Con. Gen.*, n. 27,30,34,35,44,45.

[لأنه كما أنه هو كلمة الآب وحكمته، هكذا أيضاً فبتنازله للمخلوقات، ومن أجل بلوغ الإنسان إلى معرفة وإدراك الآب، صار هو البهاء والحياة والباب والراعي والطريق والملك والمدبِّر ومخلِّص الكل، وواهب الحياة والنور والعناية بالكل.

ولأن الآب له ابن مولود منه وصالح في ذاته وخالقٌ، فإنه لم يحجبه عن نظر خلائقه بجعله غير منظور، ولكنه كان كل يوم يعلنه للكل من خلال نظام الأشياء وحياتها التي وهبها لهم. وبهذا فإنه (الآب) يعلن نفسه فيه وبه (بالابن) كما يقول المخلِّص: «أنا في الآب والآب فيَّ.» (يو ١٤: ١٠)][٣]

ومن حيث إننا نستطيع أن نرى ابن الله من خلال نظام الكون، فقد يبدو أنه حتى هذه المعرفة تندرج تحت اسم المعرفة الفائقة للطبيعة. ولكن القديس أثناسيوس لا يُفرِّق دائماً وبوضوح بين المعرفة الطبيعية (التي من العقل)، وبين تلك الفائقة للطبيعة التي يمكن أن نحصل عليها من الله بواسطة الموهبة المعطاة لنا عند خلقتنا.

لذلك فهو يقول إنه بمقدورنا أن نعرف حكمة الله من خلال المخلوقات؛ أما معرفتنا بأنَّ "حكمة الله" هي شخص (أقنوم)، فإن الوحي هو الذي يُعرِّفنا بذلك.

وبعد سقوط آدم صارت الأمور من سيىء إلى أسوأ. فلم يَعُد الإنسان قادراً أن يتعلَّم كيف يعرف الله جيداً من خلال المخلوقات. ولهذا ففي

---

(٣) *Con. Gen.*, n. 47; *De Inc. V.*, n. 12.

ملء الزمان أتى كلمة الله نفسه متدانياً إلينا في شكل هذه الخليقة المنظورة، لكي يقدر الإنسان أن يعرف الله، من حيث أن كلمة الله هو صورة الله نفسه(٤).

ونتيجة لذلك فإن الكلمة المتجسِّد هو الذي يكشف لنا عن الآب. فالمسيح، إذن، جاء لكي يُعلن الآب. ويقول القديس أثناسيوس بهذا الصدد:

[... لهذا الغرض فإن مخلِّص الكل، المُحب، كلمة الله، أخذ لنفسه جسداً، وكإنسان تخاطب مع الناس، واجتذب نحوه إحساسات كل البشر، حتى يستطيع أولئك الذين يظنون أن الله ذو جسد، أن يدركوا الحق بما يعلنه الرب بواسطة أعماله، ومن خلاله تعرَّفوا على الآب فيه... ولهذا السبب وُلد وظهر كإنسان، ومات وقام، وفاق بأعماله كل أعمال البشر الذين سبقوه، حتى كلما ضلَّ الناس يستطيع أن يردهم من هناك ويُعلِّمهم عن أبيه الحقيقي كما يقول هو عن نفسه: «أنا قد جئت لكي أطلب وأُخلِّص ما قد هلك».](٥)

العلاقة بين غاية التجسُّد وبين الفداء:

والآن، ما هي العلاقة بين غاية التجسُّد وبين الفداء؟ هل بعد دخول الخطية نشأت الحاجة إلى الكلمة المتجسِّد من أجل استعلان معرفة الآب فقط؟

---

(٤) *De Inc. V.*, n. 13.

(٥) *Ibid.*, 15; *Con. Gen.*, n. 1; *Con. Ar.* I,16.

القديس أثناسيوس، كما رأينا، يُشدِّد على أن التجسُّد كان ضرورياً من أجل التأليه ومن أجل التبنِّي(٦). ولكن لقبول التعليم عن التأليه والتبنِّي كان لابد من استعلان الكلمة المتجسِّد: «... ولا أحد يعرف الآب إلاَّ الابن، ومَن أراد الابن أن يُعلن له» (مت ١١:٢٧)(٧)، فالكلمة ذاته كان غير منظور مثل الآب. ويقول القديس أثناسيوس:

[وإذ لم يكن لائقاً بصلاح الله أن يتغاضى عن أمر خطير كهذا، ولأن البشر كانوا لا يزالون عاجزين عن أن يدركوا أنه ضابط ومدبِّر الكل؛ لذلك كان صواباً أن يتخذ لنفسه جزءًا من الكل كأداة، أي جسده البشري، ويتحد به، حتى وبعد أن عجز البشر عن أن يدركوه في الكل، لا يعجزون عن أن يدركوه في الجزء. وبعد أن عجزوا عن أن يتطلَّعوا إلى قوته غير المنظورة، يستطيعون أن يدركوه من مشابهته لهم، وأن يتأملوه ويتفحَّصوه.](٨)

وهكذا لم يكن ممكناً لأحدٍ سوى ابن الآب الوحيد أن يُعلِّم البشر عن الآب(٩). ولكننا نعلم أن الله كان قد عيَّن للإنسان أن يحصل على المعرفة الفائقة للطبيعة منذ البداية. ولهذا كان ينبغي، إذن، أن يكون في فكر الله منذ البداية أن يصير إنساناً في ملء الزمن.

---

(٦) *Con. Ar.*, I,39.

(٧) *De Inc. V.*, n. 54; *Con. Ar.* I,n.39.

(٨) *De Inc. V.*, n. 43.

(٩) *Ibid.*, 20.

ـ ٧ ـ

المسيح هو أساس النظام الكامل الفائق للطبيعة

إن آية سفر الأمثال: «الرب قناني أول طريقه» (٨: ٢٢) التي حرَّفها الهراطقة لكي تخدم أهدافهم، تأتي بعدها آية أخرى تؤكِّد ــ كما يقولون ــ أن الكلمة كان مخلوقاً: "أسسني قبل الدهر". والقديس أثناسيوس يردُّ عليهم قائلاً إن هذه الآية كسابقتها لم تتكلَّم عن الطبيعة الإلهية للكلمة؛ بل عن الطبيعة البشرية، أي عن مجيء الكلمة جسدياً:

[لأنه لم يَقُل: "قبل الدهر أسسني كلمة أو ابناً"؛ بل قال ببساطة: "أسسني"، لكي يوضح مرة أخرى ــ كما قلت ــ أنه يقول هذا بأسلوب الأمثال، ليس عن نفسه هو (ككلمة) بل عن هؤلاء الذين يُبنَون فوقه (كأساس). فإذ قد عرف الرسول ذلك فإنه يكتب: «لا يستطيع أحد أن يضع أساساً آخر غير الذي وُضع الذي هو يسوع المسيح» (١كو ٣: ١١)، وأيضاً: «فلينظر كل واحد كيف يبني عليه».

ومن الضروري أن يكون الأساس مماثلاً لتلك الأشياء التي تُبنى عليه، حتى يمكنها أن تلتئم معه وتتحد به. فلكونه "الكلمة"، فإنه

من حيث كونه "كلمة" حقًّا، فلا يوجد هناك مَن يماثله حتى يمكن أن يتحد معه تماماً، وذلك لأنه وحيد الجنس. ولكن إذ قد صار إنساناً، فقد صار له مماثلون، وهم الذين ارتدى جسداً بطبيعةٍ مماثلة لجسدهم.

وتبعاً لذلك فإنه يكون قد "تأسَّس" بحسب بشريته لكي يمكننا نحن أيضاً أن نُبنى فوقه كحجارة كريمة، ونصير هيكلاً للروح القدس الساكن فينا. فكما أنه هو أساس حقًّا ونحن الحجارة التي تُبنى عليه، فهو أيضاً الكرمة ونحن متحدون به كأغصان ــ ليس بحسب جوهر اللاهوت، لأن هذا مستحيل حقًّا؛ بل بحسب بشريته ــ لأن الأغصان يلزم أن تكون مشابهة للكرمة بما أننا نحن أيضاً مشابهون له بحسب الجسد...

وهو لم يَقُل: "قد جعلني أساساً"، لئلا يبدو وكأنه عملٌ مخلوق وأن له بداية، فيجدون في هذا حجة للكُفْر؛ بل قال: إنه "أسسني". فالذي يؤسَّس إنما هو يؤسَّس من أجل الحجارة التي توضع فوقه، لذلك فالرب أيضاً عندما "أُسِّس" لم يكن ذلك يعني بداية وجوده، لأنه كان هو "الكلمة" قبل ذلك؛ ولكن ذلك حدث عندما لَبِس جسدنا الذي أخذه كقطعةٍ من جسد مريم (كحجر من جبل)، عندئذ يقول: "أسَّسني" كما لو كان قد قال: "لكوني "كلمة"، فقد ألبسني جسداً ترابياً". لأنه هكذا تأسَّس من أجلنا، آخذاً جسدنا لنفسه، لكي باتحادنا معه في الجسد وارتباطنا الوثيق به بسبب مشابهة الجسد، نبقى غير

مائتين وغير قابلين للفساد، وبه نصل إلى إنسانٍ كامل.][1]

غاية التجسُّد هو منحنا عدم الموت:

يجدر بنا، بوجه خاص، أن نذكر أن الهدف الأسمى من كون المسيح هو **أساسنا**، هو اقتناء عدم الموت وعدم الفساد. والقديس أثناسيوس يُشدِّد على أن هذا **الأساس**، أي **المسيح**، كان قد وُضع **سابقاً قبل إنشاء العالم**، وأنه كان في فكر الله منذ الأزل:

[أما الكلمات: "قبل العالم"، و"قبل أن يصنع الأرض"، و"قبل أن تُرسَى الجبال" (أم ٨: ٢٣-٢٥)، فلا ينبغي لأحد أن ينزعج بسببها، لأنه قد ربطها بتناسق تام مع لفظ "**أسَّس**" ولفظ "**خلق**"؛ لأن هذا ينسجم أيضاً مع التدبير بحسب الجسد. لأنه رغم أن النعمة التي صارت إلينا من المخلِّص، قد ظهرت الآن، كما قال الرسول، وقد أتت حين أقام بيننا؛ إلاَّ أن هذه النعمة كانت قد أُعدَّت قبل أن نوجد بل حتى من قبل أن يُخلق العالم.

والسبب في هذا صالح ومُذهل، فلم يكن من اللائق أن يفكر الله بخصوصنا بعد أن خلقنا، لئلا يظهر أنه يجهل مصيرنا. فإله الجميع، إذن، عندما خلقنا بكلمته الأزلي، ولأنه كان يعرف أمورنا أكثر منا، ويعرف مُقدماً أيضاً أننا رغم كوننا قد خُلقنا صالحين، إلاَّ أننا سنكون فيما بعد مخالفين للوصية، وأننا سنُطرد من الجنة بسبب العصيان؛ فلأنه هو محب البشر وصالح، فقد أعدّ

---

(١) *Con. Ar.* II,74.

من قَبْلُ تدبير خلاصنا بكلمته الأزلي (الذي به أيضاً خُلقنا)، لكي حتى وإن كنا قد خُدعنا بواسطة الحية وسقطنا، فلا نبقى أمواتاً تماماً، بل يصير لنا في "الكلمة" الفداء والخلاص الذي سبق إعداده لنا، وإذ نقوم من جديد نظل غير مائتين، وذلك عندما "خلق" (جسده) هو من أجلنا "كبداية طريق الله"، وعندما يصير ذاك الذي هو "بكر الخليقة" "بكراً للإخوة"، ويكون قد قام "كباكورة الأموات". هذا ما يعلِّمنا به القديس بولس الرسول المغبوط لتفسير النص الذي جاء في الأمثال: "قبل الدهر"، و"قبل أن كانت الأرض"، وذلك عندما كتب إلى تيموثاوس قائلاً: «... بحسب قوة الله، الذي خلَّصنا ودعانا دعوة مقدسة، لا بمقتضى أعمالنا، بل بمقتضى القصد والنعمة التي أُعطيت لنا في المسيح يسوع **قبل الأزمنة الأزلية**، وإنما أُظهِرَت الآن بظهور مخلِّصنا يسوع المسيح...» (٢تي ١:٨-١٠)، وأيضاً إلى أهل أفسس: «... الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويَّات في المسيح، كما اختارنا فيه **قبل تأسيس العالم**، لنكون قديسين وبلا لوم قدَّامه في المحبة، إذ سبق فعيَّننا للتبنِّي بيسوع المسيح لنفسه، حسب مسرَّة مشيئته.» (أف ١:٣-٥)][٢]

اختيار المسيح كأساس لعدم فسادنا:

في هذا الفصل المذكور أعلاه يؤكِّد القديس أثناسيوس على حقيقة أن المسيح قد اختير **كأساسٍ منذ الأزل** لئلا يبدو وكأن الله لا يكترث

---

(٢) *Ibid.*, II,75; *De Synodis*, n. 3.

بنا. لقد اختير كضامنٍ إذا ما سقط الإنسان، وقد سقط الإنسان فعلاً وجاء المسيح.

وهكذا تحقَّق أن المسيح قد اختير كضامنٍ في حالة سقوط الإنسان(٣). ولكنِ هل كان اختيار المسيح ليكونَ ضامناً، بمعنى أن تجسُّده يعتمد تماماً على وجود الخطية؟ هذا غير معقول، بل إن الحياة غير القابلة للفساد هي الهدف من هذا "الأساس". وقد رأينا من قبل أن هذه الحياة غير القابلة للفساد لم تكن مستطاعة إلاَّ بواسطة تجسُّد الله. وهذا ما أكَّد عليه القديس أثناسيوس باعتباره الهدف الأسمى للتأسُّس في المسيح كما جاء في النص السابق(٤). وهو يؤكِّد عليه أيضاً في هذا النص التالي:

[**كيف اختارنا، إذن، قبل أن نُخلق**، إلاَّ بقوله إننا كُنَّا فيه مرسومين قبلاً (προτετυπωμένοι)؟ بل وأيضاً، كيف سبق فعيَّننا للتبنِّي قبل أن يخلق البشر، إن لم يكن الابن نفسه كان "متأسِّساً قبل العالم" آخذاً علي عاتقه التدبير المختص بنا؟ أو كيف، كما يضيف الرسول قائلاً: "إذ كنا مُعيَّنين سابقاً نلنا ميراثاً" (أف ١ : ١١) لو لم يكن الرب نفسه "متأسِّساً قبل العالم"، حتى يكون له قصد من أجلنا أن يأخذ على عاتقه عن طريق الجسد كل ميراث الدينونة الكامل التي كانت ضدنا، وبهذا نكون نحن قد صرنا أبناءً فيه. وكيف أيضاً حصلنا على النعمة "قبل الأزمنة

---

(٣) *Con. Ar.* II,73.

(٤) *Ibid.*, II,74.

الأزلية" بينما لم نكن قد خُلقنا بعد، إذ قد خُلقنا في الزمن؛ ما لم تكن النعمة التي وصلت إلينا مُذخَّرة في المسيح؟

لهذا أيضاً ففي الدينونة عندما ينال كل واحد بحسب عمله، يقول: «تعالوا إليَّ يا مباركي أبي، رِثوا الملكوت المعدَّ لكم منذ تأسيس العالم» (مت ٢٥: ٣٤). كيف، إذن، أو بواسطة مَن أُعِدَّ الملكوت قبل أن يخلقنا (الله)، إن لم يكن بواسطة الرب الذي "تأسَّس قبل العالم" لأجل هذا الغرض؟ لكي ببنياننا عليه كحجارة متراصة جيداً، نشترك في الحياة والنعمة الممنوحتين منه! ولقد حدث هذا ــ كما يمكن أن يفهمه جيداً كل مَن يفكر بتقوى ــ لكي نستطيع، كما سبق أن قلت، أن نحيا إلى الأبد ما دمنا قد قمنا من الموت معه بعد وقت قصير. وهذا الأمر لم يكن في إمكاننا أصلاً بما أننا بشر من تراب، لو لم يكن رجاء الحياة والخلاص قد أُعدَّ لنا في المسيح من "قَبل العالم".

إذن، فمن الإنصاف ــ إذ قد أتى الكلمة إلى ما داخل جسدنا وإذ قيل إنه "خُلق فيه كأول الطرق من أجل أعماله" (أم ٨: ٢٢) ــ أن يصير **أساساً**، تماماً حسب مشيئة الآب التي كانت فيه، كما قيل: "قبل العالم"... لكي، وإن كانت الأرض والجبال وكل أشكال الطبيعة المنظورة تزول في نهاية هذا الدهر الحاضر، لا نشيخ مثلها؛ بل نتمكن من أن نحيا بعدها، وقد صارت لنا الحياة والبركة الروحية التي قد أُعدَّت لنا قبل تلك الأشياء في "الكلمة" نفسه بحسب الاختيار. لأنه هكذا لن يكون لنا أن نحيا حياة مؤقتة، بل أن نبقى أحياء في المسيح بعد زوال تلك

الأشياء، بسبب أن حياتنا كانت قد تأسَّست وأُعِدَّت في المسيح يسوع قبل هذه الأشياء.] (٥)

في هذا الفصل الطويل الجميل يشرح القديس أثناسيوس كيف يمكن أن نكون قد تأسَّسنا في المسيح قبل أن نكون قد وُجدنا وقبل أن يتم التجسُّد. وهو يجيب أن ذلك يكون بسبب أن ذاك الذي هو "الكلمة" الأزلي قد اختير ليكون هو أساسنا بواسطة تجسُّده. وهو أساس نعمتنا ومجدنا، التي تبلغ إلى حياة عديمة الفساد لا تنتهي مع المسيح وفي المسيح، وهذا هو هدفنا الأسمى.

ولكي نصل إلى تحقيق ذلك احتجنا إلى الإله المتجسِّد ليكون أساساً لنا، طالما نحن مجرد مخلوقين. **هذه الحاجة لم تنجم عن الخطية، بل بسبب طبيعتنا الخاصة كخلائق جُبلنا من تراب.** لاحِظ أيضاً أن الهدف الحقيقي لتجسُّد الكلمة هو أن يصير أساس حياتنا لتكون حياة عديمة الفساد، وهذه هي العلَّة النهائية لوجودنا. لذلك يبدو أنه أمرٌ أكيد، بحسب القديس أثناسيوس، أن التجسُّد قد دبَّره الله إذ كنا مُعيَّنين من قبل للمجد.

---

(٥) *Ibid.*, II,75.

- ٨ -

المسيح اختير من أجل ذاته

لاحظنا أن القديس أثناسيوس يُشدِّد على حقيقة أن "الكلمة" لم يحصل لنفسه على أية منفعة (شخصية) من التجسُّد، فنحن الذين حصلنا على المنفعة. أما الكلمة فلم يتجسَّد من أجل نفسه بل من أجلنا نحن. وفي الكتاب الرابع ضد الأريوسيين نجد فصلاً رائعاً بخصوص وساطة المسيح هذه:

[إن ربنا، إذ هو كلمة الله وابنه، لَبِسَ جسداً وصار ابن إنسان لكي إذ قد صار وسيطاً (μεσίτης) بين الله والناس يمكنه أن يخدم لنا ما يختص بالله ويوصِّل إلى الله أمورنا. ولهذا فحين قيل عنه أنه جاع... فإنه كان يأخذ ما لنا ويقدِّمه للآب، متشفِّعاً من أجلنا لكي يبطل هذه الضعفات في نفسه. وحين قال: "دُفِع إليَّ كل سلطان" و"قَبِلتُ"، وحين يكتب بولس الرسول: «لذلك رفَّعه الله» (في ٢: ٩)؛ فهذه كلها عطايا من الله مُعطاة **لنا** من خلاله. لأن "الكلمة" لم يكن مُعْوَزاً لشيء ولم يأتِ إلى الوجود في وقتٍ ما من الزمن. كذلك فإن البشر لم يكونوا أكفاء لأن يقدِّموا هذه العطايا لأنفسهم، ولكنها أُعطيت لنا بواسطة "الكلمة". وهي إذ قد أُعطيت له أولاً فإنها تنتقل إلينا من خلاله.

لأن السبب في كونه صار إنساناً كان هذا: أنَّ ما قد أُعطِيَ له ينتقل منه إلينا. لأن الإنسان العادي لم يكن مستحقاً لقبول مثل هذه العطايا، كما أن "الكلمة" وحده لم يكن في حاجة إليها.

لذا اتحد الكلمة بنا، وعندئذ نقل إلينا قوته ورفّعنا. ولأن "الكلمة" حلَّ في الإنسان، رفع الإنسان؛ وإذ كان "الكلمة" في الإنسان، نال الإنسان هذه العطايا.

ومنذ أن صار "الكلمة" في الجسد، رفع الإنسان، ونال القوة، وصارت كل هذه تُنسب إلى "الكلمة" بما أنها أُعطيت بسببه. لأنه بسبب "الكلمة" الحالِّ في الإنسان أُعطيت هذه العطايا.

ومن حيث إن "الكلمة صار جسداً"، هكذا أيضاً فإن الإنسان نفسه نال العطايا التي أتت بواسطة "الكلمة". لأن كل ما ناله الإنسان صار يُقال إن "الكلمة" هو الذي ناله، لكي يظهر أن الإنسان رغم أنه غير مستحق أن ينالها بسبب طبيعته، فإنه مع ذلك قد نالها بسبب "الكلمة" الذي صار جسداً. ولهذا فكلُّ ما قيل عن أي شيء إنه أُعطِيَ للرب، ينبغي أن نعتبر أنه قد أُعطِيَ ليس لمن هو في احتياج إليه، بل أُعطِيَ للإنسان من خلال "الكلمة". لأن كل مَن يتوسط من أجل آخر فإنه يأخذ هو نفسه العطية، ليس على أنه هو المحتاج إليها بل لأجل مَن توسَّط من أجله.][(١)]

ماذا نال الجسد من اللاهوت؟

مثل هذه الأقوال هي من القوة بحيث إنها لو أُخذت بحدِّ ذاتها فقد

(١) *Con. Ar.* IV,6,7.

يتصوَّر المرء أن القديس أثناسيوس يستبعد أيًّا من الفوائد للكلمة حتى كإنسان. ولذلك فهو يقول:

[إن كان يُقدِّس ذاته من أجلنا، ويفعل هذا لأنه صار إنساناً، فمن الواضح جداً أن نزول الروح عليه في الأردن إنما كان نزولاً علينا نحن بسبب لِبسْه جسدنا. وهذا لم يَصِر من أجل رفعة "الكلمة"، بل أيضاً من أجل تقديسنا، حتى نشترك في مسْحته، ولكي يُقال عنا: «أَمَا تعلمون أنكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم؟» (١كو ٣:١٦)](٢)

أو أن يكون ما تقبَّله "الكلمة" قد تقبَّله لمجرد أن ينتقل منه إلينا، وليس من أجل منفعته الخاصة:

[ويوضِّح المخلِّص بالأحرى كل هذه الأمور حين يقول للآب: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني، ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد» (يو ١٧:٢٢). فهو، إذن، كان يطلب المجد أيضاً من أجلنا. والكلمات "أخذ" و"أعطى" و"مُجِّد"، قيلت حتى نأخذ نحن، ولكي تُعطَى لنا، ولكي نحن نتمجَّد فيه؛ وذلك تماماً كما يُقدِّس هو ذاته من أجلنا لكي نتقدَّس نحن فيه.](٣)

اللاهوت لم يزد شيئاً بالتجسُّد:

في كل هذا ينبغي أن نتذكَّر أن القديس أثناسيوس يدافع عن

---

(٢) *Ibid.*, I,47; II,55.

(٣) *Ibid.*, I,48,47; III,53.

لاهوت "الكلمة". وحقاً إن "الكلمة" باعتباره "الكلمة"، أي المسيح في طبيعته الإلهية، هو الذي لم يأخذ شيئاً، وذلك لأنه كان دائماً كاملاً ممتلئاً. وفي هذا الصدد يقول القديس أثناسيوس:

[فإن كان هو الله و"عرش مُلْكه دائماً إلى الأبد"، فبأي معنى يمكن أن يرتقي الله؟ أو ماذا ينقص ذاك الجالس على عرش أبيه؟ إن كان كما قال الرب عن نفسه: إن الروح هو روحه، وهو يأخذ مما له؛ وإن كان هو نفسه الذي يرسل الروح (يو ١٤:١٦)، إذن، فلا يكون الذي يُمسح بالروح والذي يعطيه هو ذاته "الكلمة" باعتباره "الكلمة" و"الحكمة"؛ بل الجسد الذي قد اتَّخذه هو الذي يُمسح فيه وبواسطته، وذلك لكي يصير التقديس الآتي إلى الرب كإنسان منه إلى جميع البشر.][٤]

مجد المسيح لماذا ناله؟

يعترف القديس أثناسيوس ويكتب عن المزايا العظيمة للتجسُّد بالنسبة للمسيح كإنسان، وذلك في رسالته إلى أدلفيوس *Ad Adelphium*[٥].

فالمسيح كإنسان قد تمجَّد كثيراً. ويُشدِّد القديس أثناسيوس على ذلك مراراً وتكراراً. والحقيقة إنه تحدث عن ذلك كمعلِّم عندما تعرَّض لشرح رفعة المسيح التي كتب عنها القديس بولس إلى أهل فيلبي (٢:٩)، وذلك في الفصول ٤٠ـ٥٠ من الكتاب الأول: "ضد الأريوسيين". وعلى

---

(٤) *Ibid.*, I,47,43,44.

(٥) *Ad Adelphium*, n. 1-4.

سبيل المثال نورد هنا النص التالي:

[وعبارة "رفَّعه" هذه لا تعني أن جوهر "الكلمة" قد ارتفع، لأنه كان دائماً وما يزال "مساوياً لله"، ولكن الارتفاع هو لبشريته. ولهذا فلم يكن يُقال ذلك من قبل، بل بعدما صار "الكلمة" جسداً فقط، لكي يصير واضحاً أن التعبيرين "وَضَعَ نفسه" و"ارتفع" ذُكِرَا عن إنسانيته؛ لأنه حيث تكون هناك حالة نزول تكون هناك أيضاً حالة ارتفاع. وإن كان قد كُتب أنه "وضع" نفسه بسبب اتخاذه الجسد، فمن الطبيعي أن يُقال إن الله "رفَّعه" بسبب الجسد أيضاً. لأن الإنسان كان في مسيس الحاجة إلى هذه "الرِّفْعة" بسبب وضاعة الجسد، وبسبب الموت. ومن حيث إن "الكلمة" إذ هو صورة الآب وغير مائت، قد أخذ طبيعة العبد، وكإنسان اجتاز الموت بالجسد من أجلنا، لكي بذلك يهب نفسه للآب بالموت من أجلنا؛ لذلك يُقال عنه إنه "رُفِّع" كإنسان أيضاً عنا ومن أجلنا... فذاك الذي يقدِّس الجميع، يقول أيضاً إنه يُقدِّس نفسه للآب من أجلنا، ليس بالطبع لكي يصير "الكلمة" مقدَّساً، بل لكي بتقديس ذاته يُقدِّسنا جميعاً في ذاته. فهكذا، وبنفس المعنى، ينبغي أن نفهم الجملة التي قيلت عنه: "رفَّعه الآب"...](٦)

نصرة المسيح على الموت:

القديس أثناسيوس يخبرنا أيضاً بأي معنى رُفِّع المسيح. فجسد

(٦) *Con. Ar.*, I, 41; *De Inc. Et Con. Ar.*, 9,12; *Con. Apollinarium*, II,3.

المسيح قد خلص من الموت وتحرَّر، ونحن قد خلصنا على مثاله باتحادنا به(٧).

والإشارة إلى التحرُّر ينبغي أن تُنسب إلى الطبيعة البشرية بوجه عام. فالبشر يتجدَّدون بالمشابهة والمشاركة في التجديد الكامل الذي تمّ أولاً في المسيح(٨). فهو نال الحياة(٩)، والنعمة، ومُسح بالروح(١٠). ومن خلال كل هذا قد تقدَّس، "إلاَّ أن هذا الذي يُعطي الآخرين باعتباره كلمة وبهاء الآب، يُقال الآن إنه يتقدَّس لأنه الآن قد صار إنساناً، والجسد الذي يتقدَّس هو جسده الخاص."(١١)

تأليه البشرية في المسيح:

والعطية العظمى التي نالها المسيح كإنسان كانت هي تأليه الطبيعة البشرية من خلال اتحادها بـ"الكلمة الأزلي". و"الكلمة" لم يُحَطَّ قَدْره باتخاذه جسداً، بل بالأحرى فإن "الكلمة" ألَّه الجسد الذي اتَّخذه(١٢). فتمجيد المسيح كان ببساطة هو تأليهه للجسد. ولذلك يقول القديس أثناسيوس:

[... كي يبيِّن أنه ليس الآب هو الذي صار جسداً، بل "كلمته" هو الذي صار إنساناً، وهو يأخذ من الآب ويتمجَّد بواسطته

---

(٧) *Con. Ar.*, II, 61.

(٨) *Con. Apollin.*, I,21.

(٩) *De Inc. et Con. Ar.*, n. 2.

(١٠) *Con. Ar.*, I,45-47,50.

(١١) *Ibid.*, I,47,41,46.

(١٢) *Ibid.*, I,42; III,38-39.

كما يفعل البشر. فمن الواضح ـ ولا يستطيع أحد أن يشك في ذلك ـ أن ما يعطيه الآب إنما يعطيه عن طريق الابن. وهذا أمرٌ عجيب ومدهش!

فالنعمة التي ينالها الابن من الآب ليُعطيها لنا، سبق أن نالها الابن نفسه كإنسان كما قيل؛ والرفعة التي يعطيها الابن للبشر سبق أن نالها من الآب حينما رفَّعه الله كما قيل. فلأن ابن الله نفسه قد صار ابن الإنسان أيضاً، فهو "ككلمة" يُعطي ما ناله من الآب، لأن كل ما يعمله الآب ويعطيه إنما يعمله ويعطيه للبشر من خلال الابن. إلاَّ أنه كابن الإنسان، يُقال إنه ينال كما ينال البشر، ولكنه يناله من ذاته (أي من لاهوته)، لأن جسده هو جسده الخاص به وليس خاصاً بآخر غيره، فهو يمتلك الطبيعة القادرة أن تأخذ؛ ولذلك فهو قد أخذ هذه الرفعة بقدر ما يتمجَّد "الإنسان" (أي طبيعته البشرية). أما هذه الرفعة فهي تأليه الجسد الذي اتَّخذه؛ وأما الكلمة نفسه فله هذه الخاصية (التألُّه) بحسب جوهر وألوهية وكمال أبيه، والتي هي أيضاً خاصة به.](١٣)

إذن، الكلمة أخذ الجسد لكي يؤلِّهه في نفسه:

[فقد لَبِسَ الجسد البشري المخلوق لكي بعد أن يُجدِّده كخالق فإنه يؤلِّهه في نفسه. وهكذا يُدخلنا إلى ملكوت السموات على

(١٣) *Ibid.*, I,45.

مثاله.](١٤)

ولكنه إذا كان يُدخلنا إلى السموات على مثاله، فهو نفسه، إذن، كإنسان قد جاز مجداً عظيماً فائقاً على الكل.

والمجد الذي قَبِلَه المسيح كإنسان في التجسُّد هو موضوع آخر يُشدِّد عليه القديس أثناسيوس. فالمسيح اقتنى هذا المجد لكي يعطيه لنا(١٥). ومجد الجسد هذا قد صار للمسيح من خلال قيامته. والجسد الذي هو بطبيعته قابل للفساد جعله غير فاسد(١٦). وبهذا الصدد يقول القديس أثناسيوس:

[لأنهم كانوا يجهلون هذا الأمر أن "الكلمة" لم يَصِر جسداً كإضافة تُزاد على الألوهية، بلٍ لكي يمكن للجسد أن يقوم من الموت. كما كانوا يجهلون أيضاً أن الكلمة وُلد من مريم لا لكي يصير هو أفضل، بـل لكي يمكنه أن يفتدي الجنس البشري.

كيف، إذن، يظنون أن الجسد، الذي يُفتدى ويحيا بـ "الكلمة"، يمكن أن يُقدِّم أية إضافة إلى ألوهية "الكلمة" الذي قد أحياه (أي أحيا الجسد)؟ بل إن الجسد البشري هو نفسه الذي نال إضافة عظيمة نتيجة شركته واتحاد الكلمة معه. فعِوَضٍ أن كان مائتاً صار غير مائتٍ، وبالرغم من كونه جسداً حيوانياً صار روحانياً، ورغم أنه جُبِل من الأرض فقد دخل من

---

(١٤) *Ibid.*, II,70; III,38,39; *De Decr.*, n. 14; *De Inc. et Con. Ar.*, n. 3.

(١٥) *Con. Ar.*, I,48; *De Inc. V.*, n. 22 fin.

(١٦) *Ad Epictetum*, n. 10.

أبواب السماء.](١٧)

جمال جسد الرب يسوع:

بسبب ما حازه المسيح من مميزات، كان جسده بارع الجمال:

[لا يمكن لعقل إنسان أن يُعبِّر عن جمال أو مجد جسد يسوع.](١٨)

يترتب على هذه الاعتبارات أنه يمكننا أن نقول إن التجسُّد قد تعيَّن من أجلنا بسبب بشرية المسيح. والقديس أثناسيوس يقول المرة تلو الأخرى إن كل ما استطعنا أن نحصل عليه، إنما كان ذلك لأن المسيح قد حازه أولاً وهو يعطيه لنا(١٩).

وبالتالي فإن القديس أثناسيوس حينِ يكرر القول أن المسيح أخذ (ما أخذه) "من أجلنا"، فهو يشير ضمناً إلى طبيعة المسيح البشرية أنه هو الآخذ الأول.

فالمسيح هو أول وأعظم مُتقبِّل لمنافع التجسُّد. والقديس أثناسيوس يمكن أن يتكلَّم عن أخْذِنا تلك الأشياء، وهو لا يُفرِّق دائماً بوجه قاطع بين أخْذِنا نحن وأخْذ المسيح؛ ذلك لأنه يعتبر **المسيح ونحن كواحدٍ، كجسدٍ واحد. فكل ما أخذه المسيح، قد أخذناه نحن؛**

---

(١٧) *Ibid.*, n. 9; *De Decretis*, n. 14.

(١٨) *Con. Apollinarium*, I,22.

(١٩) *Con. Ar.*, I,42,40, II,60,70, IV,6.

وكل ما أخذناه نحن، قد أخذه المسيح (كإنسان) أولاً[٢٠].

وهذا التعليم يوضِّح حقيقة أن المسيح صار "**بداية طريقنا**" (هذا الفصل قد شرحناه سابقاً)، وكذلك بسبب كونه "**الابن البِكْر**" (وهذا ما سوف نتحدث عنه في الفصل القادم).

والآن، إن كانت طبيعة المسيح قد تقبَّلت مثل هذا المجد الفائق والحياة غير القابلة للفساد والتألُّه بوجه خاص بالاتحاد مع الابن الأزلي والحياة غير المائتة، أَلاَ يكون قد تعيَّن لذلك دون أدنى ارتباط له بالخطية كسائر الناس؟

ويطرح القديس أثناسيوس هذا السؤال: ألم يكن موجوداً في خطة الله الأولى لعالم البر، أن يكون المسيح هو أول وأعظم مَن يتقبَّل صلاح الله؟ والقديس أثناسيوس بنفسه يُقدِّم الرد بالإيجاب على هذا التساؤل، وذلك بتعظيمه لأمجاد الطبيعة البشرية في المسيح بهذا المقدار.

فبحسب تعليم القديس أثناسيوس، فإن التجسُّد بهذه الصورة ليس المقصود منه توضيعاً للمسيح كما يُظَن به في أحيانٍ كثيرة بسبب تفسيرٍ خاطئ لِما جاء في (في ٢: ٨)، بل يستطرد قائلاً:

[... بل بالأَوْلى جداً "كلمة" الله الكلِّي القداسة، بارئ الشمس وربها، لم يتدنَّس قط بمجرد ظهوره في الجسد؛ بل بالعكس، فلأنه عديم الفساد، فقد أحيا وطهَّر هذا الجسد الذي كان في

---

(٢٠) *Con. Ar.*, I,42,47,48; *Apologia pro Fuga Sua,* 13; E. Mersch, *Le Corpe Mystique du Christ,* pp. 387,392,396.

حدٍّ ذاته قابلاً للفساد.][21]

والتجسُّد بهذه الصورة جلب لطبيعة المسيح البشرية منافع أعظم بما لا يُقاس مما للطبائع المخلوقة الأخرى كلها، لأن منافعه صارت مصدر منافع للآخرين. فكلمة الله المتجسِّد، الإله المتأنِّس، هو أروع ما قدَّمه الله المدبِّر الأعظم للخليقة.

---

(٢١) *De Inc. V.*, n. 17.

وعلى ضوء ما قيل في هذا الفصل وما سبقه بخصوص التأليه والتبنِّي والمجد، يمكن للمرء بسهولة أن يرى كيف أخطأ ريفيير J. Rivier فَهْم فكر القديس أثناسيوس حين كان يتكلَّم عن الفداء الطبيعي، حيث يؤكِّد أن الفداء قد تمّ فقط بمعنى أن التجسُّد كان **الشرط** الأساسي للفداء، وأن القديس أثناسيوس يخلط الأمر فيضع السبب الفعَّال مكان الشرط. ولكن القديس أثناسيوس يعتبر ـ بصوابٍ ـ أن التجسُّد، أي العمل الذي صار إليه الكلمة المتجسِّد، هو السبب الفعَّال والمثالي والنهائي للتبنِّي والنعمة والمجد والتألُّه الذي صار لنا. القديس أثناسيوس يتبنَّى وجهة نظر أكثر إيجابية عن اللاهوت مما لبعض اللاهوتيين الغربيين ومَن يأخذ بقولهم. **فتعليمه عن المسيح وعن الخلاص لا يتثقَّل بقيود الخطية.**

- ٩ -

بِكْر كل خليقة

يتعرَّض القديس أثناسيوس في شرحه لامتداد عمل "الكلمة" المتجسِّد كما جاء في (أم ٨:٢٢) لشرح معنى ما جاء في (كو ١:١٥): «**بِكْر كل خليقة**». ولأننا نستخدم هذه العبارة لكي نثبت أوَّلية Primacy المسيح المطلقة، فمِن اللائق أن نقدِّم هنا تفسير القديس أثناسيوس لها بالكامل.

يَدَّعي الأريوسيون أن المسيح هو بكر جميع المخلوقات لأنه خُلِق أولاً في زمنٍ ما (بحسب هرطقتهم)، وأنَّ جميع الآخرين خُلِقوا (فيما بعد) بواسطتهِ كأداة. القديس أثناسيوس ينقض ذلك القول باعتباره ضد ألوهية "الكلمة"، ويُقدِّم له تفسيراته الخاصة بهذا الشأن. فهو يُقدِّم لنا أسباباً متعددة لتسمية المسيح "**البكر**". وهذه الأسباب لا تتعارض مع بعضها البعض، كما أنها لا تُناقض بعضها البعض.

القديس أثناسيوس يخبرنا أن الكلمة الأزلي هو الذي يُدعى "**بكر كل خليقة**". وهو يعتبر العبارة نفسها كبرهان على ألوهية المسيح، وذلك لأنه يضعها في مساواة مع "صورة الله غير المنظور" التي تشير

بالتأكيد إلى "الكلمة" كما هو[١]. فلو لم يكن المسيح إلهاً وابناً لَمَا كان ممكناً أن يُدعى "بكر كل خليقة". ويستطرد القديس أثناسيوس قائلاً:

[فهو، إذن، بطبيعته بكر، كامل من كامل، مولود قبل التلال (أم ٨: ٢٥)، أي قبل كل المخلوقات العاقلة الناطقة، كما يدعوه بولس الرسول أيضاً في مكان آخر: «**بكر كل خليقة**» (كو ١: ١٥). ولكنه، بتسميته "**بكر**" يجعله ليس مخلوقاً، بل مولوداً من الآب. لأن تسميته مخلوقاً لا تتناسب مع ألوهيته. لأن كل الأشياء قد خلقها الآب من خلال الابن، والابن وحده هو الذي وُلِد أزلياً من الآب. لذلك فالله الكلمة هو "بكر كل الخليقة"، غير المتغيِّر المولود من غير المتغيِّر.][٢]

الفرق بين لقب "الابن الوحيد" و"بِكْر بين إخوة كثيرين":

فإذا كان القديس أثناسيوس يُصرّ على أن اصطلاح "بكر" يشير إلى "الكلمة" ويدلُّ على أنه ليس مخلوقاً، إلاَّ أنه لا يعني بذلك أنه يشير إلى الولادة الإلهية بدون أية علاقة بالخلائق. فهو نفسه يرفض هذه الفكرة، فيقول:

[لأنه لو كان حقًّا "بكراً" لَمَا كان يُدعى "وحيداً"، لأنه غير ممكن أن يكون هو نفسه "وحيداً" و"بكراً" إلاَّ إذا كان يشير إلى أمرين مختلفين: فهو "**الابن الوحيد**" بسبب الولادة من الآب، كما قيل؛

---

(١) *Con. Gent.*, n. 41.

(٢) *Exp. Fidi*, n. 3; *De Dec.*, n. 26; *Con. Ar.*, II,45.

وهو "**بكر**" بسبب تنازله للخليقة وجَعْله الكثيرين إخوة له. وعلى كل حال، بما أن هذين اللفظين متعارضان أحدهما مع الآخر، فإنه سيكون بإمكانٍ أي شخص أن يقول إن صفة "الوحيد الجنس" لها الأفضلية في حالة "الكلمة"، وذلك لسبب عدم وجود "كلمة" آخر أو "حكمة" آخر، بل إنه هو وحده ابن الآب الحقيقي. علاوة على أنه كما قيل سابقاً: «الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب» (يو ١:١٨)، فهي قيلت عنه دون ارتباط بأي سبب، بل بصورة مطلقة. أما **اصطلاح "البكر" فهو مرتبط بسبب، أي بسبب الخليقة**، التي أشار إليها بولس الرسول عندما قال: «فإنه فيه خُلِق الكل» (كو ١:١٦). فإن كانت المخلوقات قد خُلِقت فيه، فهو ــ إذن ــ آخَرٌ مختلف عن المخلوقات وليس هو مخلوقاً بل خالق المخلوقات.][٣]

كيف صار "الابن" الوحيد بكراً لإخوة كثيرين؟

إذن، فالبكر هو بكر لأن له إخوة. والابن قد اقتنى له إخوة بطرق متعددة. **فهو البكر بسبب تنازله إلى الخلائق عند الخلق**[٤]. ويبدو لنا للوهلة الأولى وكأن "الكلمة" صار بكراً بالخلق هكذا، ولكنه في الحقيقة قد صار بكراً بسبب النعمة التي أُعطيت للخليقة عند الخلق. فكما لاحظنا سابقاً أن القديس أثناسيوس لا يُفرِّق دائماً بين الخلق ورفعة الإنسان (أي التبنِّي)، لأن كليهما حدثا في نفس الوقت. فالبشر

---

(٣) *Con. Ar.*, II,62.

(٤) *Ibid.*, II,63-64; n. 75.

خُلقوا، وفي نفس الوقت صار اقتناؤهم كأبناءٍ بـ "الكلمة" نفسه. فيقول القديس أثناسيوس:

[إنه واضحٌ أيضاً أن تسمية الابن بـ "**البكر**" لم تكن بسبب إدخاله في عداد المخلوقات، بل كبرهان على خلق وتبنِّي الكل بواسطة الابن. لأنه كما أن الآب هو الأول، هكذا هو أيضاً (أي الابن) هو أول، كصورة الأول (الآب) تماماً؛ ولأن الأول (الآب) هو فيه (أي في الابن)، فهو أيضاً مولود من الآب، وفيه تمَّ خَلْق الخليقة كلها وتبنِّيها.](٥)

"بِكر" بسبب نعمة التبنِّي التي أُعطيت للبشر بواسطته:

هناك العديد من الشواهد التي تدلُّ على أن اللقب "بكر" هو بسبب نعمة التبنِّي التي أُسبغت على الخليقة عند الخلق. فإلى جانب النص السابق، نلاحظ القديس أثناسيوس في النص التالي يؤكِّد على هذه الحقيقة فيقول:

[والآن، إن كان أيضاً قد سُمِّي "بكر الخليقة"، إلاَّ أنه مع ذلك لم يُلقَّب "بكراً" كما لو كان قد جُعِل مساوياً للمخلوقات أو أولهم زمنياً ـ لأنه كيف يمكن أن يكون هذا وهو نفسه "وحيد الجنس"؟ ـ ولكنه كان هكذا بسبب تنازل "الكلمة" إلى المخلوقات، وبذلك أيضاً صار أخاً لكثيرين. لأن "وحيد الجنس" هو كذلك لكونه وحيداً وليس له إخوة آخرون؛ أما البكر

(٥) *Ibid.*, III,9.

فيُسمَّى "بكراً" بسبب وجود إخوة له. لذلك لم يُذكر في أي موضع في الكتاب المقدس أنه "بكر الله" أو "مخلوق الله"، بل "وحيد الجنس" و"الابن" و"الكلمة" و"الحكمة"، وهي تشير إلى علاقته الخاصة المتميِّزة بالآب... أما لفظ "البكر" فيشير إلى تنازله إلى الخليقة، لأنه بسببها سُمِّي بكراً. وقوله "خَلَقَ" يشير إلى نعمته التي أسبغها على صنعة يديه: «فإنه فيه خُلِق الكل» (قارن أم ٨: ٢٢، كو ١: ١٦).][٦]

"بكر" لأنه النموذج الذي خُلِقت عليه الخلائق:

عند نهاية هذا الفصل يشير القديس أثناسيوس إلى أن الابن يُدعى "بكر الخليقة" بحقٍّ لأن الخلائق **قد خُلِقت فيه** كما قال بولس الرسول: «فإنه فيه خُلِق الكل» (كو ١: ١٦). إذن، فـ "الكلمة" هو بكر لأنه النموذج الذي عليه خُلِقت الخلائق؛ فقد وضع "الكلمة" ختمه، مثاله، في الإنسان عند الخلق، ومع أن البشر هم مثل "الكلمة" الذي صاروا له إخوة، إلا أن "الكلمة" كما يخبرنا القديس أثناسيوس، فإنه باعتباره الكلمة، لا يحتاج أن يكون مثلنا[٧]. وعن هذه الصورة التي خُتِم بها الإنسان عند الخلق، يتحدث القديس أثناسيوس بأكثر تفصيل في الفصول: ٧٨–٨٢ من كتابه الثاني "ضد الأريوسيين". وقد تعرَّضنا لها من قبل عند شرح (أم ٨: ٢٢).

---

(٦) *Ibid.*, II,62.

(٧) *Ibid.*, II,62,64.

"بكر" بسبب الفداء الذي حرَّر البشرية:

إذن، فبحسب القديس أثناسيوس، فإن الابن الأزلي هو بكر كل خليقة بسبب نعمة التبنِّي التي أُعطيت عند الخلق. فهل يمكن أن يُدعى "الكلمة المتجسِّد" بكر كل خليقة؟ نعم، وذلك **بسبب الفداء الذي أفاد كل الخلائق بنوعٍ ما**. ويستطرد القديس أثناسيوس قائلاً:

[إذن، فهو لم يُدْعَ "بكراً" بسبب ولادته من الآب، بل بسبب أن الخليقة قد خُلِقت به. وكما أن الابن نفسه كان موجوداً قبل الخليقة، وهو الذي به قد صارت الخليقة، هكذا أيضاً فإنه قبل أن يُسمَّى "بكر كل الخليقة" كان هو "الكلمة" ذاته عند الله و«كان الكلمة الله»... وقد دُعِيَ "بكر كل الخليقة" من أجل محبة الآب للبشر التي بسببها قد تكوَّن الكل بكلمته، بل إن الخليقة نفسها التي يتحدث عنها الرسول أنها "تنتظر استعلان أبناء الله" (رو ٨: ١٩)، هي أيضاً سوف تُعتق يوماً من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله (رو ٨: ٢١). هكذا فبعد أن تتحرَّر الخليقة سيكون الرب أيضاً هو بكرها وبكر كل الذين صاروا أبناء، لكي بتسميته "الأول" يظل الذين يتبعونه متَّكلين على الكلمة الذي كان هو بدايتهم.][٨]

هو بكر بسبب أنه أول من قام من بين الأموات:

والكلمة المتجسِّد هو أيضاً "بكر" بسبب التجسُّد نفسه، الذي يجعله أكثر مشابهة لنا. وهو من خلال التجسُّد يقتني إخوة كثيرين. وفي هذا

---

(٨) *Ibid.*, II,63.

المعنى يقول القديس أثناسيوس:

[... ولكن إن كنا نحن نصير أبناءً بالتبنِّي وبالنعمة، فمِن الواضح أن "الكلمة" أيضاً، حينما صار إنساناً بسبب نعمة التبنِّي لنا، قال: "الرب خلقني". وأيضاً، حينما لَبِسَ طبيعة مخلوقة، صار مُشابهاً لنا بحسب الجسد، ولهذا فمِن الصواب أن يُدعى "أخانا" و"بكرنا" معاً. لأنه رغم أنه صار إنساناً بعدنا ومن أجلنا، وأخانا بسبب مشابهة الجسد، إلاَّ إنه بسبب هذا يُدعى بكرنا، لأنه بما أن كل البشر قد هلكوا بسبب المخالفة التي أتاها آدم، فإن جسده كان هو أول ما تم تخليصه وتحريره قبل جميع الآخرين لكونه صار جسد الكلمة نفسه؛ وهكذا إذ قد صرنا جسداً واحداً معه قد خلصنا بسببه، لأن فيه (أي في جسد الرب) صار الرب هو قائدنا إلى ملكوت السموات وإلى أبيه نفسه... ومن أجل ذلك يُدعى أيضاً "بكراً من بين الأموات"، ليس لأنه مات أوَّلنا، بل لأنه قَبِلَ الموت لأجلنا وأبطله، فكان هو أول مَن قام كإنسان، إذ قد أقام جسده من أجلنا. فلأنه قد قام، فنحن أيضاً بالتالي سنُقام من بين الأموات بواسطته وبسببه(٩)... وهو يُسمَّى "بكراً بين إخوة كثيرين" بسبب مشابهة الجسد.](١٠)

---

(٩) *Ibid.*, II,61; 62-63.

(١٠) *Ibid.*, II,63; n.61.

بكرٌ بسبب تبنِّي الأبناء للآب بواسطته:

والقديس أثناسيوس بالأكثر يعتبر الكلمة المتجسِّد، المسيح، أنه "بكر كل الخليقة" بسبب تبنِّي الأبناء بواسطته، فيقول:

[... الكلمة حين خلق المخلوقات في البداية، تنازَل إلى مستوى المخلوقات حتى يتيسَّر لها أن تأتي إلى الوجود. لأنه ما كان ممكناً لها أن تحتمل طبيعته، إذ هو بهاء الآب الخالص، لو لم يكن قد تنازَل بسبب محبة الآب للبشر حتى يعضدها ويمسك بها ويُحضرها إلى الوجود.

ومرة أخرى، إنه لسبب تنازُل الكلمة، قد صار تبنِّي الخليقة نفسها به لكي يصير هو "بكرها" ـ كما سبق أن قيل ـ من كل الوجوه، سواء في الخلق أم في دخوله إلى هذا العالم من أجل الكل، لأنه مكتوب: «متى أَدْخَلَ البكر إلى العالم، يقول: ولتسجد له كل ملائكة الله» (عب ١:٦). لأن إدخاله إلى العالم ساهم في تسميته "بكر" الكل. ولهذا فإن الابن هو "وحيد الآب" لأنه هو الوحيد الذي من الآب؛ كما أنه في نفس الوقت "بكر كل خليقة"، بسبب تبنِّي الجميع كأبناء. ومن حيث إنه هو "بكر بين إخوة كثيرين"، وقد قام من بين الأموات ليكون هو أيضاً «باكورة الراقدين.» (١كو ١٥: ٢٠)

لذلك إذ كان من الواجب أن "يكون متقدِّماً في كل شيء" (كو ١: ١٨)، لهذا فقد كُتِب عنه: "خُلِق أول طرقه" (أم ٨: ٢٢)، لكي إذ نسير نحن فيه وندخل بواسطة ذاك الذي يقول: «أنا هو الطريق» و«الباب»، ونشترك في معرفة الآب؛

فإننا نسمع نحن أيضاً الكلمات: "طوباهم الذين بلا عيب، السالكين في الطريق" (مز ١١٩:١)، وأيضاً: «طوبى للأنقياء القلب، لأنهم يُعاينون الله.» (مت ٥:٨)][١١]

في هذا الفصل، يعتبر القديس أثناسيوس أن المسيح كـ "إله متأنِّس" هو "بكر كل الخليقة" بسبب تبنِّي الأبناء، حتى الملائكة يجب أن تسجد له. ويبدو ضمناً وكأنهم هم أيضاً نالوا التبنِّي بواسطة المسيح. لذلك فالمسيح كابن أزلي وكابن متجسِّد معاً، هو "بكر كل الخليقة" و"أول الطرق". فهو الأول على كل الخليقة.

في مستهل هذه الدراسة، لاحظنا أن الابن المتجسِّد كان ضرورياً للتبنِّي، وأنَّ الإنسان كان مُعيَّناً للتبنِّي الإلهي من البداية. وبالتالي فإن الابن المتجسِّد يظهر أنه كان هو المثال والوسيط لهذا التبنِّي منذ البداية. وهو لهذا **بكر كل الخليقة منذ البداية.**

---

(١١) *Ibid.*, II,69.

- ١٠ -

المسيح هو مثال الإنسان

يعمد بعض المؤلِّفين في إثباتهم الأوَّلية المطلقة للمسيح، إلى القول بأن المسيح كان مُعيَّناً منذ البداية من الله ليكون هو النموذج المثالي الذي سيُخلق عليه الإنسان، سواء على المستوى الطبيعي أو الفائق للطبيعة كليهما. فهل نجد ما يبرهن على ذلك عند القديس أثناسيوس؟

يتحدث القديس أثناسيوس مراراً كثيرة عن "كلمة الله" باعتباره صورة الله، وعن الإنسان باعتباره مخلوقاً بحسب هذه الصورة. ومع ذلك، فهل خلق الله الإنسانَ ورفعه إلى الرتبة الفائقة للطبيعة بحسب نموذج المسيح هذا؟

يقول القديس أثناسيوس بوضوح إننا الآن قد صار تأليهنا ورفعتنا وتبنِّينا وتمجيدنا بحسب نموذج المسيح. وكون المسيح هو أساسنا منذ البداية، يعني أنه هو أيضاً النموذج الذي عليه خُلقنا، وأن تسميته "**بِكر كل الخليقة**" يدلُّ على أنه هو النموذج المثالي للأبناء المتبنِّين الذين هم نحن الآن. وإذا أوردنا المراجع لهذه النقاط، فإن ذلك سيضطرنا إلى تكرار ما سبق أن أوردناه عند شرح النقاط المختلفة التي سبق أن ذكرناها.

ففي تلك النصوص ـ التي أوردناها سابقاً ـ تبيَّن لنا أن القديس أثناسيوس يعتبر أن الإله المتأنِّس كان في فكر الله من قبل التدبير الأول للخليقة. لهذا يظهر أنه بحسب القديس أثناسيوس كان الإله المتأنِّس هو النموذج المثالي لخلقة الإنسان ورفعه إلى مستوى النعمة والمجد. وربما لم يكن القديس أثناسيوس واضحاً جداً في تناوله هذه النقطة حتى يتحاشى أن يُعطي الأريوسيين أية علَّة يتهمونه بها بأنه يقبل نفس الفكر الذي يقبلونه، وذلك كما فعل بخصوص توسُّط المسيح قبل زمن التجسُّد.

- ١١ -

المسيح مُعيَّن ليكون غاية كل المخلوقات وأول الكل

إن كلمة الله الأزلي صار إنساناً ليس فقط ليفتدينا، بل وأيضاً لكي يحكمنا كملك(١)، ولكن ذلك يعني أنه ينبغي أن نعبد "الكلمة المتجسِّد"، فهو غايتنا، ونحن حقًّا موجودون بفضل تحنُّنه. وحتى الملائكة، الذين كانوا دائماً يسجدون لله، الآن يسجدون له في اسم يسوع، والذي ينبغي أن يُسجد له أيضاً، وفي السماء سوف يُسجد له إلى الأبد(٢).

المسيح هو حقًّا السبب النهائي لقيامتنا، إذ يقول القديس أثناسيوس:

[وبما أنه قد قام، هكذا نحن أيضاً سنقوم في الزمان المحدد من بين الأموات بواسطته وبسببه.](٣)

---

(١) *Con. Ar.*, I,49.

(٢) Ibid., 42.

(٣) Ibid., II,61; IV,7.

وبالطبع فإن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن المسيح هو حقًّا غاية كل الخليقة كفادٍ. ولكن هل كان المسيح مُعيَّناً أن يكون هو غاية كل الخليقة منذ اللحظة الأولى في الخلق؟

يُقدِّم لنا القديس أثناسيوس برهاناً بخصوص الكلمة الأزلي كحجة للهدف النهائي من التجسُّد:

> [... هكذا فنحن صورة الله وقد صرنا لأجل مجده... لأن "كلمة الله" لم يَصِرْ من أجلنا، بل بالحري نحن قد صرنا من أجله، و"به قد خُلِقت كل الأشياء." (كو ١:١٦)][٤]

في هذا الاقتباس يبرهن القديس أثناسيوس على ألوهية الكلمة.

---

(٤) Ibid., II,29-31; II,71; IV,11.

خاتمة

- "هذه الخاتمة خاصة بالمتقدمين في الدراسة اللاهوتية، إذ هي دراسة للعلماء اللاهوتيين الذين درسوا فكر القديس أثناسيوس عن الخلاص، واتجاهاتهم اللاهوتية. وهي مفيدة للقارئ الذي يريد التعمُّق في فهم الفكر الحقيقي الصحيح للقديس أثناسيوس الرسولي عن الخلاص".

خلال هذه الدراسة تعرَّضنا بالإشارة من حين لآخر لبعض الدارسين الذين تناولوا بشكل مباشر أو غير مباشر موضوعٍ مبرِّرات التجسُّد بحسب القديس أثناسيوس. وسوف نقدِّم هنا ملخَّصاً وحُكْماً على ملاحظات أولئك الذين ذكرناهم في هذا البحث:

✠ **موهلر** J.A. Moehler، في مؤلَّفه الشهير عن القديس أثناسيوس، يذكر عشرة أسباب للتجسُّد بحسب كتابات القديس أثناسيوس، وهي: لِيُجدِّد معرفة الله، ليبيد الخطية، ليؤهِّل لعدم الموت، لِيُنهي على عبادة الأوثان، لِيُحررنا من سلطان الشيطان، لِيُجدِّد الثقة بالله، لِيُصالحنا مع الله، لِيُؤلِّهنا، لِيُكمِّلنا، لِيُوحِّدنا مع الله. وهو يخبرنا أن القديس أثناسيوس يعتبر كل هذه الأسباب كسببٍ واحد. ولهذا يمكن أن يقول عن كل واحد منها إنه هو غاية τέλος التجسُّد، لأن ما

يُقال عن الواحد يتضمن الكل(١). على أنه من السهل أن نرى أن "موهلر" لم يُجِب على السؤال فيما إذا كان القديس أثناسيوس قد اعتبر جميع هذه الأسباب تتعلَّق بالخطية أم لا.

✠ **أتزبرجر** L.Atzberger، يُعطِي هذا الملخَّص عن مبرِّرات التجسُّد بحسب القديس أثناسيوس: إن عدل الله يتطلَّب عقاب آدم، ولكن حكمة الله تطلب تجديده. وكِلاَ الغرضين يمكن أن يتحقَّقا في موت الإله المتأنِّس. وأيضاً، فإن الخطية لكونها تغلغلت في طبيعة الإنسان عينها، كان يلزم أن يصير الله متجسِّداً في تلك الطبيعة لكي يُبطِل الخطية. وإلى جانب عمل التجديد هذا، كان القصد من التجسُّد أيضاً هو أن **يُكمِل عمل الخلقة الأصلية**(٢). ومع أن "أتزبرجر" لم يُجِب على سؤال أوَّلية الدوافع للتجسُّد الإلهي، إلاَّ أنه يبدو واضحاً أنه يُفضِّل الاتجاه إلى رأي التوماويين(٣)، والذي يؤكِّد على أن تجسُّد الله كان ضرورياً فقط للفداء. ولكنه لا يؤكِّد على أن عمل الفداء كان هو الهدف الأول للتجسُّد.

✠ **بـل** G.A. Pell، كتب عن الفداء بحسب القديس

---

(١) نشر العالِم موهلر هذه الآراء في مؤلَّفه الشهير عن القديس أثناسيوس:

J.A. Moehler, *Athanasius der Grosse und die Kirche seiner Zeit,* besonders im Kampfe mit dem Arianismus (Mainz, Kupferberg, 1884), pp. 163-165.

(٢) نُشرت آراء العالِم أتزبرجر عن القديس أثناسيوس في كتاب:

L.Atzberger, *Die Logoslehre des hl. Athanasius:* Ihre Gegner und Ihre Komittelbaren Vorlaeufer (München, 1880), pp. 210-214.

(٣) التوماويون هم تلاميذ توما الأكويني (١٢٢٥-١٢٧٤م)، وهو راهب دومينيكاني. ويُعتبر توما الأكويني من أكبر العلماء اللاهوتيين الكاثوليك، وقد اشتهر بتوفيقه بين منطق أرسطو واللاهوت المسيحي بطريقة مدرسية عقلية مما أعطاه اسم: "اللاهوتي المدرسي".

أثناسيوس(٤). ولم يكن بمقدوري أن أرجع إلى مؤلّفه، غير أن "برخم" J.B.Berchem(٥) يذكر أن "بل" ينقض نظرية Voigt(٦) أن القديس أثناسيوس يُنادي بأن "الكلمة" كان سيصير متجسِّداً حتى ولو لم يكن آدم قد أخطأ. وحجته في ذلك تتفق إلى حدٍّ كبير مع فكر "أتزبرجر" (المذكور أعلاه) وفكر "سبندلر" (الذي سيُذكر فيما بعد).

☩ **ستراتر** H.Straetter، وهو يؤكِّد أهمية التجسُّد كما هو في لاهوت الخلاص بحسب القديس أثناسيوس(٧). غير أنه لا يتناول بصفة مباشرة سؤال أوَّلية الدوافع للتجسُّد. وكل ما يفعله هو أنه يوضِّح الحاجة إلى التجسُّد من أجل الفداء، وهو يعتمد في ذلك على أتزبرجر(٨).

☩ **برخم** J.B.Berchem، كتب عن موضوع مكان المسيح في خطة الله بحسب القديس أثناسيوس، والقارئ يُلاحظ من قراءة كتاباته الأهمية الفائقة التي ينسبها إلى سرِّ التجسُّد. فتعليمه تغلب عليه فكرة واحدة:

---

(٤) عن كتاب:

Die Lehre des hl. Athanasius von der Suende und Erloesung (Passau, 1888), p. 167-170.

(٥) في مؤلَّفه:

L'Incarnation dans le plan divin, *Echos d'Orient* (1934), Footnote, 325.

(٦) المذكورة في:

Die Lehre des Athanasius von Alexandrien (Bremen, 1861), pp. 156-159.

(٧) كما أورده في:

Die Erloesungslehre des hl. Athanasius (Freiburg in B., 1894), p. 140.

(٨) Ibid., p. 201; pp. 54-65.

التجسُّد. وجميع أقواله الأخرى تدور حول هذه الفكرة الواحدة(٩).

و"برخم" يُردِّد السؤال المعتاد بخصوص الدافع النهائي: **لو أن الإنسان لم يخطئ، هل كان المسيح سيتجسَّد؟** ويجيب على ذلك بقوله: إنه بحسب القديس أثناسيوس يوجد سبب واحد للتجسُّد وهو الفداء من الخطية، فالكلمة صار جسداً لأجل خلاصنا. والحقيقة أن القديس أثناسيوس، كما يقول "برخم"، **يذهب إلى أبعد من ذلك ويُشدِّد على أن حاجتنا هي التي أحدرت ابن الله إلينا**(١٠).

ثم يكتب أنه على الرغم من أن القديس أثناسيوس وضع في اعتباره القضية الفعلية للتجسُّد (وهي الفداء) ولم يُعبِّر عن السؤال بمصطلحات لاهوتيي العصور الوسطى، إلاَّ أنه يُشدِّد كثيراً على العلاقة الكائنة (حالياً) بين الخطية والتجسُّد، حتى وكأنه يبدو أنه يُفضِّل تعليم التوماويين Thomists.

والواقع أننا لا نجد عنده أي ذِكر لدافعٍ آخر (للتجسُّد) غير تعويض الخطية. ولهذا يظهر أنه بدون ظهور الحاجة إلى إصلاح الطبيعة البشرية (بسبب ما طرأ عليها من فساد) لكان التجسُّد قد فَقَدَ غايته(١١).

والجملة الأخيرة تبدو شديدة الغرابة وغير صادقة، أن تصدر عن شخصٍ قد أكَّد بالفعل على أهمية عمل الخلاص من الناحية الإيجابية،

---

(٩) Art. cit., p. 317.

(١٠) Ibid., pp. 329-330.

(١١) Ibid., p. 330.

أي: **التبنِّي والتأليه**[١٢]. وكما قد لوحظ في هذا البحث، فإن القديس أثناسيوس ركَّز بشدة على التأليه والتبنِّي كدافع للتجسُّد، وباعتبار أنهما ضروريان ليس فقط بسبب أن الإنسان قد أخطأ، بل لأن الإنسان مخلوقٌ هو، وأن التجسُّد قد خُطِّط له قبل سَبْق رؤية السقوط. وعلى أي حال فإن القديس أثناسيوس ما كان على الإطلاق يعتبر التجسُّد بدون أي هدف لو لم تكن الخطية قد حدثت. فمثل هذه الفكرة غريبة تماماً عن تعليمه.

انظر أيضاً ما قيل في هذا البحث عن تمجيد طبيعة المسيح البشرية الخاصة. وبالمثل فإن قول "برخم" أن القديس أثناسيوس يركِّز بشدة على الربط بين الخطية والتجسُّد، هو قول خاطئ على ضوء ما اكتشفناه في تعليم القديس أثناسيوس عن التأليه والتبنِّي والتمجيد، بل وحتى عن تعليمه على مقولة "**خلاصنا**". دَعني أُكرر أن عبارة: "من أجلنا ومن أجل خلاصنا" (قانون الإيمان)، تعني في فكر القديس أثناسيوس في الأصل: "لأجل خلاص ـ أي تأليه وتمجيد ـ طبيعة المسيح البشرية". فإذا كانت "حاجتنا" هي التي أنزلت "الكلمة إلينا"، فإن هذه الحاجة هي بالأساس باعتبارنا مخلوقين، وكانت هي حاجة طبيعة المسيح البشرية أولاً التي استوفاها ابن الله، إذ ألَّه وقدَّس هذه الطبيعة وعَبَرَ بها بحر الموت إلى الحياة بالقيامة.

---

(١٢) برجاء الرجوع إلى:

Le rôle du Verbe l'œuvre de la Création et de la Sanctification d'Après Saint Athanase, *Angelicum,* XV (1938), 201-232 ; Le Christ Sanctificateur d'après St. Ath., 515-558.

✝ **سبندلر** A.Spindeler، وقد تزامن كتابه مع منشور الأب الجليل الراحل ليونارد بيلو (O.F.M.). وكان بالطبع عليه أن يتعامل مع القديس أثناسيوس مرات عديدة. وقد سبق أن أشرت إلى تفاسيره الخاطئة بخصوص (أم ٨:٢٢، كو ١:١٥)، هذا إلى جانب أنه يقول عن الآباء ـ بمن فيهم القديس أثناسيوس بوجه خاص ـ إنهم لا يعرفون سبباً آخر للتجسُّد غير خلاص الإنسان، ويستخلص من ذلك أن مجيء المسيح يعتمد كليَّة على الخلاص من الخطية[١٣]. وباعتقاده هذا فهو يُسيء فهم القديس أثناسيوس.

فأولاً: وكما أثبتنا ذلك من قبل، فإن "**من أجل خلاصنا**" عند القديس أثناسيوس تعود على "طبيعة المسيح البشرية".

ثانياً: إن التأليه يُذكر أنه هو الهدف من التجسُّد، وبهذا يكون التجسُّد قد تقرَّر قبل سَبْق معرفة الخطية. وهذا العالِم حين يدَّعي بأن الآباء الذين كتبوا ضد أريوس وأبوليناريوس علَّموا أن المسيح كانت له طبيعة بشرية لأنه كان عليه أن يفتدي الإنسان من عقوبة الخطية، يستخلص نتيجة غير جائزة بزعمه أن التجسُّد يرتبط فقط بالخطية[١٤].

ولكن الآباء علَّموا أن تجسُّد الله في طبيعة بشرية كاملة وتامة كان ضرورياً من أجل خلاص تام. وهذا بعيد كل البُعد عن القول بأن الفداء هو الهدف الوحيد للتجسُّد. كما أنه يُقدِّم استنتاجاً زائفاً

(١٣) *Op. cit.*, pp. 46 *et seq.*

(١٤) Ibid., p. 68.

مماثلاً، بأن الآباء يُشدِّدون على ألوهية المسيح من أجل عمل الفداء(١٥). ومن المؤكَّد طبعاً أن عمل الفداء تَطلَّب إلهاً متجسِّداً؛ إلاَّ أن ذلك الإله المتجسِّد كان لابد أن يكون قد تعيَّن للمجد حتى قبل الحاجة إلى الفداء للإنسان.

ومن هذا يمكننا أن نقرر مدى قيمة ما جاء في تقريره الختامي: "إذا كنا نلخِّص هذا الفصل من تاريخ العقيدة، الذي تأثَّـر بشدة بالقديس أثناسيوس، فلا يمكننا أن نأتي بشيء أفضل من نص مجمع نيقية: "**تجسَّد... من أجل خلاصنا**""(١٦). وكما رأينا مراراً كثيرة، في هذا البحث، فإن هذه الجملة تُلخِّص غرض التجسُّد. فكلمة "**خلاصنا**" ينبغي أن تُؤخذ بمعنى أكثر اتساعاً من الخلاص الذي يتضمن الاقتصار على الفداء من الخطية؛ و"**من أجلنا**" تشمل طبيعة المسيح البشرية التي تمثِّلنا نحن البشر. وهكذا فإن مجد المسيح الخاص وتألُّهه هو الخطوة الأولى لنوالنا نفس النعمتين.

✠ **الأب كريزوستوم** Chrysostome, O.F.M.، يذكر عدة نصوص من أقوال القديس أثناسيوس ليُثبت بها نقاطاً كثيرة لها علاقة بفكرة "أوَّلية" المسيح المطلقة(١٧). ولكنه لا يُقدِّم سوى القليل تحليلاً لهذه النصوص.

---

(١٥) *Loc. cit.*

(١٦) Ibid., p. 69.

(١٧) كما ورد في:

Christus Alpha et Omega seu de Christi Univertale Regno, (Lille, Berges, 1898). Ch. 1-10, *passim.*

✠ **الأب بورناند** J.B. du Petit-Bornand, O.F.M. Cap.، يستشهد كثيراً بنصوص من القديس أثناسيوس. وقد أشرنا إلى رأيه عن تفسير القديس أثناسيوس لـ (أم ٨:٢٢)، وهو يؤيِّد بحق ما جاء في قول القديس أثناسيوس أن (كو ١:١٥) تشير إلى "الكلمة" المتجسِّد من جهة علاقته بالمخلوقات منذ البداية(١٨). إلاَّ أن تحليله لقول القديس أثناسيوس في هذه النقطة غير كامل. وأيضاً، نجده يذكر فقط وبدون تحليل عدة نصوص: منها نصٌّ(١٩) لكي يُثبت أن مجيء المسيح لا يعتمد أساساً على الخطية كمبرِّر لتجسُّده؛ ونصٌّ آخر(٢٠) لكي يُثبت أن هدف التجسُّد هو تأليه الإنسان في المسيح؛ ونصٌّ ثالث(٢١) يؤكِّد أن تأليه الإنسان والكون بواسطة المسيح هو عمل مستقل عن الخطية؛ ونصٌّ رابع(٢٢) يوضِّح أن المسيح هو أساس لكل المخلوقات(٢٣).



دعنا نختم بحثنا بالكلمات الختامية التي وردت في نهاية الكتاب

---

(١٨) كما ورد في:

Proludium de Primatu Domini Nostri Iou Christi et Causa Motiva Incarnationis; translated by Ambrosius a Saldes, O.F.M. Cap. (Barcinone, apud Subirana Fratres, 1902), pp. 235,237,254.

(١٩) *Con. Ar.*, II, 29-30.

(٢٠) *Con. Ar.*, II, 7; *De Incar. V.*, 54.

(٢١) *Con. Ar.*, II, 67,70; III, 23.

(٢٢) *Con. Ar.*, II, 74-79.

(٢٣) Ibid., pp. 111 *et seq.*, 204,301 *et seq.*

الرابع: "ضد الأريوسيين" لمعلِّمنا العظيم القديس أثناسيوس عن "الكلمة" المتجسِّد:

[أنا "الكلمة"، وأنا "المسحة"؛ أما "الإنسان" فهو الممسوح بي. وبدوني ما كان ممكناً أن يُدعى يسوع أنه "المسيح". لذلك فإرسالية "الكلمة" تشرح وتوضِّح الاتحاد الذي تم في يسوع، المولود من مريم، والذي يعني اسمه "المخلِّص"، ليس بسبب أي شيء آخر سوى لكون الكلمة قد صار واحداً معه... ولذلك فيليق أن نقول عنه إنه هو الله الكلمة؛ والمسيح، المولود من مريم، هو الإله المتأنِّس. وليس هو مسيحاً آخر، بل هو نفسه الكائن قبل الدهور من الآب، وهو أيضاً الذي في الأيام الأخيرة وُلِد من العذراء... له المجد والسجود، الكائن منذ الأزل والآن والدائم إلى الأبد، إلى دهر الدهور. آمين.][٢٤]

(٢٤) *Con. Ar.*, IV, 36.

اطلب أيضاً:
مقالات وأبحاث مسلسلة
سبق نشرها في مجلة مرقس

- **شخصية الكاهن** عند الآباء الملقَّبين بالأقمار الثلاثة
- **الصلاة الربَّانية** وشروحاتها عند الآباء
- **العظة على الجبل** وشروحاتها عند الآباء
- **الروح القدس وحياة النسك**
  عند القديس أنطونيوس وآباء البرية الأوائل
- **التبنِّي في المسيح يسوع** في فكر آباء الكنيسة
- **التجسُّد والميلاد** في تعليم آباء الكنيسة
- **الكنيسة جسد المسيح** في تعليم القديس كيرلس الكبير
- **تربية الأطفال** في تعليم القديس يوحنا ذهبي الفم
- **شهيد السراديب**: قصة عن روما القديمة
- **المسيح في صومه وصلاته من أجلنا**
- **وجودنا وكياننا في المسيح يسوع** في فكر القديس كيرلس الكبير
- **العهد القديم كما عرفته كنيسة الإسكندرية**
- **المسيح في حياته المقدسة وآلامه وقيامته وصعوده السماوي من أجلنا**
  في تعليم القديسَيْن أثناسيوس الرسولي وكيرلس الكبير
- **أصول الأُبوَّة الروحية** عند آباء البرية
- **دعوة الإنسان العُليا**
- **المحبة في المفهوم المسيحي**
- **الكنيسة بيت ميلادنا الجديد**

- **تدبير الخلاص** بحسب تعليم القديس أثناسيوس الرسولي
- **الخلاص الثمين**
- **دراسات في آباء الكنيسة**
- **المسيح المخلِّص** في تعليم وكتابات القديس أثناسيوس الرسولي
- **الرؤية النسكية لآباء البرية** عن شركة المحبة في الكنيسة
- **الله الطبيب الشافي**

الكنيسة، ومغفرة الخطايا في كرازة القديس يوحنا ذهبي الفم
- **الألم والموت ربحٌ لنا**
- **المرض والعلاج والطبيب** بحسب القديس يوحنا الدرجي
- **المغفرة والمصالحة**
- **الصلاة** في مزامير داود النبي

كما شرحها القديس يوحنا ذهبي الفم

تُطلب من:

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا - تليفون ٥٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ٨ شارع جرين - محرم بك - تليفون ٤٩٥٢٧٤٠

أو عن طريق موقع الدير على الإنترنت:

www.stmacariusmonastery.org

إن المسيح (الكلمة المتجسد) يشغل محور المنهج التعليمى لمعلم الكنيسة الشهير القديس أثناسيوس الرسولى،
وفى هذا الكتاب يشرح القديس أثناسيوس شخصية وعمل المسيح من خلال العناوين الآتية:

+ المسيح مخلصنا .
+ المسيح فادينا.
+ المسيح وسيط التأليه.
+ الابن بالطبيعة لازم لبنوتنا بالتبنى .
+ الحاجة إلى المسيح هو أساس النظام الكامل الفائق للطبيعة.
+ المسيح اختير من أجل ذاته.
+ المسيح بكر كل خليقة.
+ المسيح هو مثال الانسان.
+ المسيح معيَّن ليكون غاية كل المخلوقات وأول الكل.